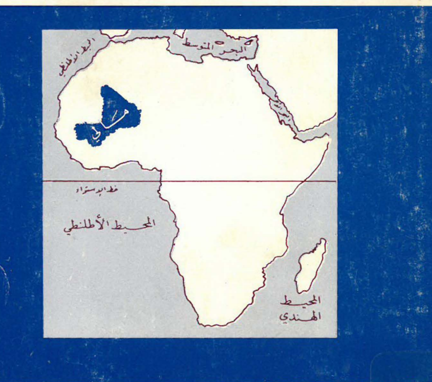
مواطن الشعوب الإسلامية
في إفريقية
- ١٤ -



مالي



نافذ أيوب بيلتو
محمود شاكر

المكتب الإسلامي

مواطن الشعوب الإسلامية
في إفريقية
- ١٤ -



محمود شاكر
نافذ أيوب بيلتو

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: إسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: إسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتـــذار

يأخذ هذا الكتاب طريقه إلى المطبعة وئيداً على استحياء من تأخره الذي قارب العشرين عاماً، فقد وعد به القراء منذ أن بدئت هذه السلسلة بالصدور، ولكن الظروف حالت دون ذلك، إذ كان حرصي أن يطلع القراء على البلاد غير المعروفة والمناطق التي تقع فيها أحداث حتى يضع المسلمون أيديهم على الخطر الذي يحيق بإخوانهم والأهواء السياسية التي تتقاذف مجتمعاتهم... ولقد وقعت أحداث في هذه البلاد ولكن حالت الظروف أيضاً دون أن أقدم شيئاً للقراء عن هذا المصر الحبيب، وانتهت الأحداث، واستمر التواكل والتأخير. وكلما دفعت كتاباً إلى دار النشر شعرت بالمسؤولية تجاه هذا الذي تأخرت فيه. حتى زاد التأخير على الحد، وزاد الخجل على الواقع وغدا بارداً.

والتقيت بأخي الأستاذ نافذ أيوب بيلتو فطلبت منه مساعدتي لنتابع الطريق سوية في تقديم هذه السلسلة لاخواننا لتعريفهم بأمصارها وكتابة هذه التعريفات الموجزة عن هذه المواطن للقراء، فاعتذر، ثم وافق بعد الإلحاح، موافقة تجره إلى الخلف أكثر مما تدفعه إلى الأمام متعللاً لنفسه ومعتذراً لها، وبعد عامين على هذه الحال

شمر عن ساعد الجد فقدم إلي بعض الذي بأيديكم ــ جزاه الله كل خير ــ، كما وعد بالمتابعة، فأرجو أن يحقق الله النفع، وأن ينفذ الأخ بما وعد.

والله هو الموفق وهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.

غرة جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ

مُقـدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين و بعد:

فإنه لا يمكن دراسة «مالي» منفصلة عن شمال إفريقية، فأرضها امتداد لها، وسكانها جزء من سكان الشمال الأفريقي، وهل الجغرافية سوى الأرض ومن عليها؟، ومن ثم فإن عقيدة أهل مالي قد وصلت إليهم عن طريق الشمال عبر الصحراء حملتها القبائل ونقلها التجار والدعاة، وأسس معظم الدول التي قامت على أرض مالي أسر انتقلت إليها من الشمال، كما أن المغرب حكم منطقة مالي أكثر من قرن، وإذا كانت الجغرافية واحدة فالتاريخ كذلك واحد، فكيف يمكن أن ندرس مالي منقطعة بجغرافيتها منفصلة بتاريخها مبتورة عن أمتها؟

وإذا كان الاستعمار قد وضع حدوداً فصلت بين المناطق فقسمت الأرض، وجزأت القبيلة الواحدة فعاش جزء منها في الشمال وبقي قسم منها في الجنوب إلا أن هذه الحدود لم تستطع أن تقطع بين القلوب التي وحدت بينها العقيدة وألفت بينها الفكرة فكانت أمة واحدة، وأهالي مالي جزء منها.

وإذا كانت الدعوة إلى الأجناس والتقوقع في المناطق الضيقة قد حجزت بين الشعوب، وفرقت بين أبناء الأمة الواحدة أصحاب العقيدة الواحدة، إلا أن هذه الدعوة لا يمكن أن تلبث طويلاً أمام الفكرة التي تنبع من العقيدة.

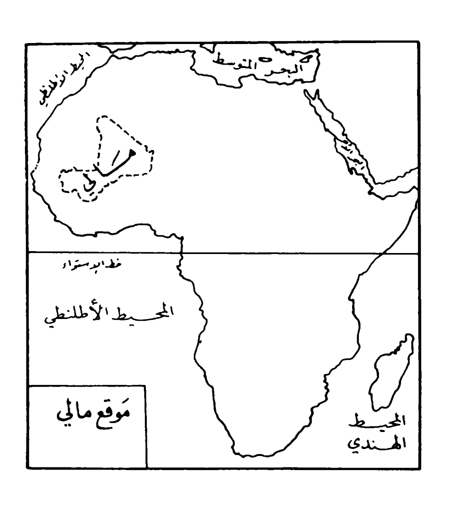
لهذا كله لا بد لنا وقد بدأت تعود إلينا الحياة من جديد من أن نرفض ما صنعه الاستعمار، ونطرح بعيداً ما قام على العصبيات والتقوقع في أجزاء صغيرة لتستطيع الأمة أن تؤدي واجبها وتقوم بمهمتها في الحياة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتجاهد في سبيله.

وكان من واجبنا التعريف بأجزاء الأمة الواحدة فإن المعرفة مدعاة إلى الوحدة ووسيلة ليناصر بعضنا بعضاً ويدعمه.

وقد قسمنا الموضوع إلى أربعة أقسام تحدثنا في الأول عن الجغرافية، وتكلمنا في الثاني عن التاريخ، وبحثنا السكان في القسم الثالث، وأعطينا لمحة عن الاقتصاد في الجزء الرابع.

وقد حرصنا في هذه الدراسة على الاختصار قدر الإمكان، فهي تعريف بهذه المواطن أكثر من أن تكون دراسة.

نسأل الله التوفيق وسداد الخطا وهو نعم المولى ونعم النصير.


البحر المتوسط
مالي
خط الاستواء
المحيط الأطلنطي
موقع مالي
المحيط
الهندي



مع الجغرافية

مالي

إحدى دول غربي إفريقية الكبرى إذ تبلغ مساحتها ١,٢٠٤,٠٠٠ كيلومتر مربع. وتجاورها كل من موريتانية والجزائر والنيجر وفولتا العليا وساحل العاج وغينية والسنغال.

السطح: تتألف أراضي مالي من هضبة مكونة من الغرانيت والصخور الرملية، ولا يزيد ارتفاعها بوجه عام على ٥٠٠ متر، تستوي في أقسامها الشمالية والشمالية الغربية فتبدو كسهل فسيح منبسط تسوده الكثبان الرملية المسماة «ثمورما» والأراضي الحصوية. في حين ترتفع في أجزائها الشمالية الشرقية قرب حدود الجزائر والنيجر، وتعد هنا امتداداً لمرتفعات «الهكّار» ويطلق عليها اسم هضبة «أدرار» وكذلك ترتفع في جهاتها الجنوبية والجنوبية الغربية قرب حدود غينية وساحل العاج حيث تكون نهاية السفوح الشمالية لمرتفعات «فوتاجالون» المشهورة في غربي إفريقية. ويفصل بين هذين القسمين من المرتفعات الجزء الأوسط من الهضبة المستوية المعروفة بهضبة

(ماندينغ) والتي يجري فيها نهر النيجر. وتنحدر المياه نحوه من كلا الجانبين. وتكون أخفض نقطة في الوسط عند مدينة (تومبوكتو) تقريباً، ثم تنحدر باتجاه الجنوب الشرقي مع مجرى النهر، وفي المنطقة المنخفضة تكثر المستنقعات وبخاصة في الصيف وتختلط مياه نهر النيجر مع رافده نهر باني، وتشكل بحيرات أو بركاً تشغل مساحات واسعة مثل «دابو» و«دو» و«كورارو» و«فاغوبيني» وكلها جنوب غربي «تومبوكتو».

ويجري نهر السنغال نحو الشمال الغربي مع انحدار قليل للأرض. ويكون بين المجريين مرتفع وئيد من الأرض، هو جزء من هضبة «ماندينغ».

وتكون بعض المناطق المنخفضة في الشمال والمغلقة تؤول إليها بعض السيول مثل «الحريشة» في المثلث الواقع بين الجزائر وموريتانية، وبالقرب منها «تاؤدني» أيضاً. وهي جزء من سهول «تانزورفت» الممتدة على مساحات واسعة في شمال البلاد وجنوبي الجزائر.

أما جنوبي الصحراء فنجد سهول «الأسواق» شمال حدود النيجر حيث وادي «الأسواق» الذي يجري من هضبة «اير» في النيجر ومرتفعات «الهكّار» في الجزائر. ثم سهول «أزواد» شمالي مدينة «تومبوكتو».

المناخ: تمتد بلاد مالي بين خطي عرض ١٠-٢٥° شمالاً. أي أنها تقع ضمن نطاقين كبيرين هما النطاق السوداني ١٠-١٨°،

والنطاق الصحراوي ١٨-٢٥°.

١ ــ الاقليم السوداني: ويمتد على قسم كبير من البلاد، ويقسم هذا الاقليم إلى قسمين بخط العرض ١٥° وهما:

آ ــ شمالي: متاخم للصحراء، ويمتاز بشدة الحرارة وقلة الأمطار التي لا يزيد متوسطها على ٢٥٠ مم، تهطل خلال فصل الصيف، كما أنها تتناقص كلما اتجهنا شمالاً، وتقل مدتها فلا يهطل في مدينة تومبوكتو أكثر من ١٠٠ مم في شهري تموز وآب فقط.

ب ــ جنوبي: ويشمل الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد، إذ أن مالي تتألف من جزئين يشبه كل منها مثلثاً ويلتقي رأساهما في الوسط حيث تضيق البلاد بين موريتانيا وفولتا العليا: الأول منهما في الجنوب الشرقي ويشمل هذا القسم أعالي النيجر والسنغال، كما أنه يؤلف الجزء الجنوبي من الاقليم السوداني أي جنوبي خط العرض ١٥°، وتتراوح كمية المطر بين ٢٥٠-٥٠٠ مم تهطل خلال سبعة أشهر تمتد من نيسان إلى نهاية تشرين الأول، وتكون الأشهر الأخرى جافة، والحرارة دائمة تقريباً ولكن تبلغ شدتها في أواخر مدة الجفاف أي في نهاية شباط وآذار.

وتزداد الأمطار في الأقسام الجنوبية والجنوبية الغربية فيبلغ معدلها من ٧٥٠-١٢٠٠ مم حيث تكون المنطقة مرتفعة نسبياً، وكذا تزداد الأمطار في جزء من المناطق الغربية إلى الغرب من مدينة (كايس) حيث تكون بلاد السنغال منخفضة فتصل إليها الآثار البحرية مباشرة.

ومن المعلوم أن العرب يطلقون على المناطق التي تزداد الأمطار فيها جنوبي الصحراء باسم الساحل نتيجة وجود المياه وهذا ما ينطبق على الاقليم السوداني في جزئه الجنوبي.

المياه: يرتبط نظام وغزارة الشبكة المائية في مالي بالأمطار ارتباطاً واضحاً، حيث تزداد هذه الغزارة في فصل الأمطار وهو الصيف وتشح حتى تكاد تنعدم في فصل الشتاء وهو وقت الجفاف، فنهر النيجر الذي يعد أهم مجرى مائي في البلاد، تبلغ غزارته في مدينة (تومبوكتو) في الصيف ١٠,٠٠٠ م^{٣} /ثا بينما لا يزيد في فصل الجفاف على ١٠٠ م^{٣} /ثا.

ينبع نهر النيجر من مرتفعات (فوتاجالون) في غينيا غير بعيد من حدود (سيراليون)، ويتجه نحو الشمال والشمال الشرقي، وما إن يدخل حدود مالي حتى يتلقى مياه رافده الأول (سانكاراني) عند مدينة (كانجابا)، وينبع هذا الرافد من هضبة (فوتاجالون) أيضاً، ويسير نحو الشمال ليشكل الحدود بين غينيا ومالي.

يتابع النهر جريانه نحو الشمال الشرقي فيمر بالعاصمة (بوماكو)، ثم بمدينة (سيغو) ويكون بدءاً من باماكو موازياً لرافده نهر (باني).

ينبع نهر (باني) من هضبة (فوتاجالون) في ساحل العاج من فرعين هما: (باؤليه) و(باغوي) ثم يرفدهما نهر (بانيغنغ)، ويجري نهر (باني) نحو الشمال الشرقي وبدءاً من مدينة (جني) تختلط مياه نهري النيجر وباني في عدد من التفرعات وبخاصة في الفصل المطير، ويمر نهر باني بمدينة **موبتي**.

وتشكل مياه النهرين عدداً من البحيرات والمستنقعات جنوب غربي مدينة (تومبوكتو)، وتزداد مساحة هذه المستنقعات والبحيرات في فصل الأمطار.

يتجه نهر النيجر بعد مدينة (تومبوكتو) نحو الشرق حيث تبدأ المناطق بالارتفاع، فيمر بمدينة (بامبا) و(بورم) وبعد يتجه نحو الجنوب الشرقي فيمر بمدينة (غاو) وعندها يتلقى سيلاً عظيماً هو سيل (تيلمسي)، ثم يدخل في حدود النيجر فيمر بالعاصمة (نيامي)، ثم يتابع سيره نحو الجنوب الشرقي فيشكل الحدود بين النيجر والداهومي، ثم يدخل حدود نيجرية وتكون المناطق قد ازدادت الأمطار فيها بالاقتراب من المنطقة الاستوائية، لذا تكثر روافده وبخاصة من جهة اليسار، وأخيراً يصب في الميحط الأطلسي بعد أن يشكل دلتا واسعة.

وربما كان وادي (تيلمسي) هو الذي حفر مجرى نهر النيجر بعد مدينة (غاو) وعمّقه ثم استطاع أن يأسر مياه البحيرة الواسعة التي كانت مياه نهر النيجر تنتهي فيها، أو أن البحيرة قد فاضت مياهها فصبت في وادي (تيلمسي)، وحفرت المنطقة الفاصلة بين الوادي والبحيرة فاندفعت المياه في الوادي واستمر نهر النيجر في الوادي..

وهناك أودية أخرى جافة تنحدر من منطقة (أدرار) و(اير) وتجري سيولها نحو حوض النيجر، وأهم هذه الأودية، وادي (زغارات) ووادي (الأسواق)، وتؤول سيولها إلى نهر النيجر في بلاد النيجر قبل وبعد (نيامي).

يبلغ طول نهر النيجر من منبعه إلى مصبه ١٥٠٠ كم، يجري

نصف هذه المسافة تقريباً في بلاد مالي. وإن مياه البحيرات المستنقعات تذهب بالتبخر، ولا يجري من مياه هذه الفيضانات إلى النيجر وراء (تومبوكتو) إلا القليل.

ويوجد على نهر النيجر خزان كبير لتنظيم مياه الفيضانات وتوفير مياه الري، ويقع شمال شرقي مدينة (سيغو) عند مدينة (سانساندينغ)، ثم أقيم سد آخر بعد الأول عند مدينة (ماركالا) ولا تزيد المسافة بين المشروعين على عشرة كيلومترات.

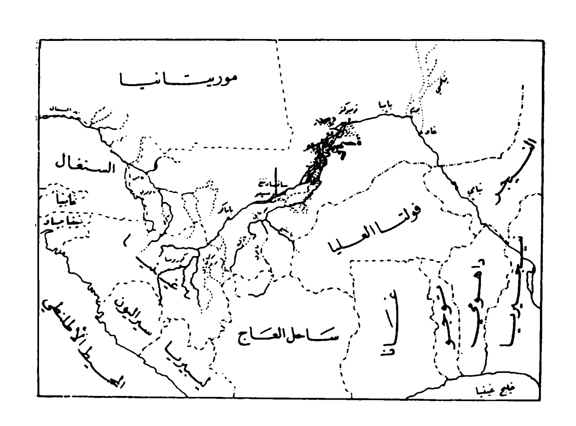
ويصلح نهر النيجر للملاحة فيصل بين مدينة (كوروسا) في غينيا و(باماكو) عاصمة مالي. وتنقطع هذه الصلاحية للملاحة مسافة ١٥ كيلومتراً شمال باماكو، ثم تعود بين (كوليكورو) ومدينة (انسونغو) بعد مدينة (غاو) قبل الحدود مع النيجر بثلاثين كيلومتراً تقريباً.

أما النهر الثاني فهو نهر (السنغال) و ينبع من هضبة (فوتاجالون) في غينيا، ويسير نحو الشمال الشرقي فيدخل أراضي مالي، ويتابع جريانه حتى مدينة (بافولابي) ويعرف في هذا المجرى باسم نهر (بافينغ) وعند المدينة المذكورة يرفده نهر (باكوي) الذي ينبع أيضاً من غينيا وتأتيه مياه من مالي، ويعرف النهر بعدها باسم «السنغال» ويمر بمدينة (كايس) متجهاً نحو الشمال الغربي، وبعد (كايس) ترفده مياه قادمة من مالي وموريتانيا وبعد ذلك يدخل في أراضي السنغال.

النبات: تنمو نباتات شوكية في المنطقة الصحراوية. كما تنمو في منطقة باماكو وبخاصة في المنطقة الفاصلة بين النهرين نباتات عشبية هزيلة، وتنقلب إلى شجيرات تلتهمها الحرائق في نهاية الفصل الجاف،

وتتجمع أحياناً بعضها مع بعض لتشكل شبه غابة يبدو عليها أثر الجفاف، وتكثر فيها الحيوانات والحشرات الكبيرة من نوع (نمل الترميت).

أما على امتداد المجاري المائية فتنمو غابات كثيفة وهو ما يعرف بالغابات الرواقية، وتنتشر كذلك أشجار كبيرة مبعثرة مثل (الأكاسيا ـ الباؤباب ـ النخيل الزيتي ـ والأشجار الشوكية) هذا إلى جانب شجرة (الطرفاء) التي يؤكل ثمرها، ويستخرج من بذورها مواد دهنية تسمى محلياً (كاريتي).



مَع التّـــاريخ

بعد أن فتح المسلمون بلاد الغرب ووصل عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي عام ٦٠ هـ، انحدر عقبة إلى إقليم السوس الأدنى (حوض نهر السبو)، وانتصر على قبيلة (مصمودة)[١] البربرية، ومضى قدماً حتى بلغ مدينة (مامسة)[٢] في بلاد السوس الأقصى، وغزا مدينة (نفيس)[٣] القريبة من مدينة (أغمات)[٤]، واستمر في تقدمه على ساحل المحيط الأطلسي حتى وصل إلى بلدة (نول)[٥] في

---

(١) مصمودة: قبيلة بربرية تنتسب إلى البرانس الذين تنتمي إليهم كبرى قبائل البربر مثل: صنهاجة وكتامة ولمطة ومصمودة.

(٢) مامسة: مدينة على ساحل المحيط الأطلسي، في أول بلاد السوس الأقصى، في شمال (أغادير) اليوم، وهي غير موجودة الآن.

(٣) نفيس: مدينة تقع في جنوب مدينة (مراكش) وباسمها نهر يرفد نهر (تنسيفت) الذي تقع عليه مدينة مراكش.

(٤) أغمات: مدينة تقع جنوب شرقي مراكش، تشرف على الممرات الجبلية ومن هنا جاءت أهميتها العسكرية. وهي للمصامدة، تكثر فيها الخيرات حتى لتعد من أغنى بلاد المغرب. بينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ.

(٥) نول: مدينة على ساحل المحيط الأطلسي في أقصى بلاد السوس، وهي حاضرة قبيلة (لمطة).

أقصى بلاد الغرب حيث كانت بعض قبائل (الملثمين)[1] تنزل فيها، واستطاع عقبة إخضاعها لسلطان الإسلام. وفتح بعد ذلك (مسوفة)، وبني فيها مسجداً ترك فيه من يعلم الناس مبادىء الإسلام. وفي هذه الأثناء دخلت قبيلة صنهاجة التي كانت تقيم في المغرب الإسلام. وبهذا وصل عقبة بن نافع إلى أطراف الصحراء، وفتح طريق للإسلام كي ينتقل إلى بلاد السودان حيث كانت القبائل تنتقل عبر الصحراء بين السودان وبلاد المغرب. ولكن هذه الجهود كادت تضيع إذ استشهد صاحبها أثناء عودته إلى القيروان، في كمين نصبه له سكان جبال (أوراس)[2] بالقرب من (تهودة)[3] عام ٦٢ هـ.

ارتدت قبائل البربر بعد استشهاد عقبة من الإسلام، ودخلت مدينة القيروان، وجرت معارك كبيرة بين الطرفين، برز فيها من البربر (كسيلة) و(الكاهنة)[4]، وقد قتل الأول على يد زهير بن قيس

---

(١) الملثمون: فرع من صنهاجة، وقد عرفوا بذلك لأنهم يضعون اللثام ليلاً ونهاراً حضراً وبدواً، ولعلهم اتخذوه اتقاء للبرد والحر، واتقاء من رمال الصحراء، أو خدعة وتنكراً في الحروب. ومن أشهر قبائل الملثمين (لمتونة) و(جدالة).

(٢) أوراس: جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر، و يقع اليوم في شرقي الجزائر.

(٣) تهودة: قبيلة من البربر بناحية إفريقية، لهم أرض تعرف بهم.

(٤) الكاهنة: وتدعى دهيا بنت مانيا من زناتة. وزناتة قبيلة بربرياً تنسب إلى «البتر» الذين منهم نفوسة واداسة وزناتة، وهم الذين يقابلون البرانس الفرع الثاني من البربر.

البلوي[1]، وقتلت الثانية على يد حسان بن النعمان[2] عام ٧٨ هـ. وبعد ذلك تسلم موسى بن نصير[3] قيادة الفتح عام ٧٩ هـ. ووصل إلى وادي (دراعة)[4] في أقصى بلاد السوس الأقصى، وإلى الأماكن التي كان قد بلغها عقبة بن نافع من قبل وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة.

كان موسى بـن نصير أبعد نظراً من عقبة بن نافع، إذ عمل موسى

---

(١) زهير بن قيس البلوي: يقال: إن له صحبة، شهد فتح مصر وولاه أميرها عبد العزيز ابن مروان على برقة عام ٦٩ هـ، فكانت له مع الروم والبربر، وقائع، استشهد في إحداها عام ٧٦ هـ.

(٢) حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان، من التابعين، حدث عن سيدنا عمر بن الخطاب، من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يلقب بالشيخ الأمين ولي إفريقية زمن معاوية بن أبي سفيان ثم كان عاملاً على مصر أيام عبد الملك بن مروان، زحف إلى إفريقية بأربعين ألفاً، وقتل الكاهنة. اعتزل الأعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك، وتوجه إلى أرض الروم غازياً، فتوفي بها عام ٨٦ هـ.

(٣) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء. أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه (نصير) على حرس معاوية، نشأ موسى في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، غزا قبرص. وكان على خراج البصرة أيام الحجاج، واشترك في غزو إفريقية، ثم وليها، وله شهرة في الفتوحات، توفي بالمدينة وكان حاجاً بصحبة سليمان ابن عبد الملك وذلك عام ٩٧ هـ.

(٤) وادي دراعة: في أقصى السوس، يشكل جزءاً من الحدود المغربية الجزائرية، يصب في المحيط الأطلسي، وعليه مدينة صغيرة تعرف باسم (درعة)، يقول صاحب المعجم إن أكثر تجارها من اليهود، وأكثر ثمرتها القصب.

على تقريب البربر إليه، وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب في إدارة البلاد، ووجد البربر أن انضمامهم إلى العرب يتيح لهم مزايا مادية كثيرة، وأخرى معنوية، فأقبلوا على الإسلام إقبالاً عظيماً، ولما عرفوا ما فيه كان إقبالهم عليه غاية بحد ذاته، لا لمنافع مادية أو مصالح شخصية. وأخذ موسى يفقه الناس في الدين، ويبني المساجد في كل البلاد التي فتحها، وبهذا أتيح للبربر أن يجنوا ثمار الثقافة الإسلامية، وأن ينهلوا من مناهل الحضارة الإسلامية.

انقاد المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله لموسى بن نصير، وشاركوه في فتح الاندلسي، وأخذت جماعات كثيرة من قبائل البربر المختلفة تتدفق إليه طمعاً في الفائدة أو حباً في الجهاد بعد أن دانت بالإسلام، واتصلت به قبائل الملثمين التي تنتشر في إقليم الصحراء الكبرى حتى حدود السودان الشمالي، فدعاهم للإسلام فأقبلوا عليه، ودانوا به، فبنى المساجد في مدينة (أغمات) التي غدت من أهم مركز الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى وعلى حدود الصحراء.

وتابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة التي اتبعها فقاموا بالدعوة إلى الإسلام بين البربر، إذ عمل (اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر)[1] والي إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي

---

(١) اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي بالولاء، كان فقيهاً فاضلاً ورعاً. استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقههم في الدين سنة ٩٩ هـ فأسلم على يديه عدد كبير من البربر، وهو أحد العشرة من كبار التابعين، توفي بالقيروان عام ١٣٢ هـ.

الله عنه على نشر الإسلام في المغرب الأقصى حتى لم يبق في ولايته يومئذ أحد إلا وقد أسلم. كما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز طائفة من التابعين انتشروا في المنطقة يحثونهم على الإسلام ويبصرونهم بشؤون دينهم.

وقام بعد ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري[١] بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة (أودغشت)[٢] بصحراء المغرب الأقصى، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها، كما أصبحت القوافل بفضل هذه الطريق الصحراوية التي أصلحها عبد الرحمن بن حبيب الفهري، والطريق الساحلية الأخرى القديمة أكثر إمكانية للتحرك نحو غربي إفريقية حاملة معها بالإضافة إلى التجارة العقيدة الإسلامية.

بعد هذه الجهود بدأ الإسلام يصل إلى منطقة السودان، و ينتشر

---

(١) عبد الرحمن بن حبيب الفهري: عرف بالصقلبي لطوله وزرقة عينيه وشقرته، كان بافريقية أيام استيلاء عبد الرحمن الداخل الأموي على الأندلس، فقاومه ودعا إلى بني العباس، قتل غيلة عام ١٤٢ هـ.

(٢) أودغشت: مدينة قديمة غير موجودة الآن، تشبه مكة المكرمة حيث تقع بين جبلين حسب رأي ياقوت الحموي، وكانت تعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في غربي إفريقية. تقع بين خطي عرض ١٨ و١٩ شمالاً أي في بلاد موريتانيا، كانت محطة تجارية ثم حاضرة قبيلة المتونة من صنهاجة، ويقال إن أهلها أسلموا على يد المهدي عبيد الله في أواخر القرن الثالث الهجري وكانوا كفاراً يعظمون الشمس و يأكلون الميتة والدم.

بين أفراد القبائل هناك عن طريق التجارة وهي قديمة بين منطقة البحر الأبيض المتوسط ومنطقة السودان، فلما انتشر الإسلام في الشمال بدأ ينتقل مع التجارة إلى الجنوب.

ويقال إن بني أمية قد أرسلوا جيشاً إلى داخل إفريقية بقصد فتح السودان، وقد استقر عدد من أفراده في تلك المنطقة، وذلك في عام ١٠٢ هـ أي في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان.

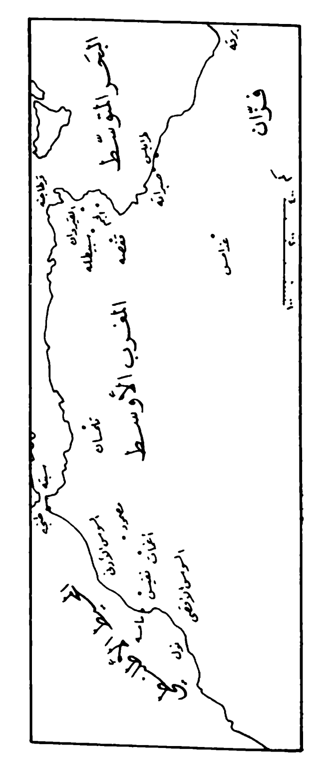
وفي عام ١٧٢ هـ قامت دولة الأدارسة[1] في بلاد المغرب الأقصى، فوجهت أنظار أهل المغرب إلى الجهاد بقصد العمل على نشر الإسلام، ووصل نفوذ الأدارسة إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن السودان، وكان تأسيس مدينة (فاس) لنشر الثقافة الإسلامية فاتحة عهد جديد في تاريخ انتشار العلم في المغرب وغربي إفريقية.

انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم، لذلك زاد تحول قبيلة صنهاجة إلى الإسلام الذي بدأ في

---

(١) أسس هذه الدولة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو أخو محمد ذي النفس الزكية الذي خرج على العباسيين في المدينة كما خرج أخوه الثاني وهو إبراهيم في البصرة في العام نفسه، أما هو فقد نجا وأخوه الثالث يحيى من معركة فخ في المدينة، وكانا مع الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب أيام ثورته على الهادي العباسي عام ١٦٩ هـ. ثم قتل الحسين، فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب، أما يحيى فقد ذهب إلى بلاد الديلم، وأسس فيها دولة أيضاً.

عهد عقبة بن نافع وزاد في عهد الأدارسة وبخاصة في القرن الثالث الهجري، وكان إسلامهم ذا أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان، فقد نتج فيه قيام تحالف قوي ضم قبائل الملثمين جميعاً بزعامة قبيلة (لمتونة) فلما تم هذا التحالف بدأ العمل للقيام بتوسع جديد، ولا يمكن أن يكون هذا التوسع نحو الشمال بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من (زناتة ومصمودة)، لذا لم يبق أمام الحلف إلا أن يتجه نحو الجنوب بقصد الجهاد والعمل على نشر الإسلام بين القبائل الزنجية الضاربة في جنوب بلادها. ومما شجع هذا الحلف على الاتجاه جنوباً أن مملكة غانة في منطقة السودان كان قد أصابها الضعف بسبب الاغارات المتكررة عليها من الجنوب. وكان لهذا التوسع أثره البالغ في تدفق المسلمين نحو الجنوب في بلاد السودان. فاستولوا على مدينة (أودغشت) واتخذوها قاعدة لهم وفرضوا الجزية عى أهلها من المغلوبين. إلا أن حلفهم قد تفككت عراه عام ٣٠٦ هـ، مما جعل غانة تستعيد مدينة أودغشت واكتفت بها دون ما حولها حيث تستطيع منها التحكم بطرق التجارة المعروفة أنذاك بين بلاد السودان والمغرب وسجلماسة، ولكن عاد الحلف بين الملثمين المسلمين فاستعادوا أودغشت عام ٣٥٠ هـ ثم لم يلبثوا أن تركوها ثانية لغانة، وهذا الاحتكاك بين السودان والمسلمين قد سهل انتشار الإسلام بين الزنوج.



المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط
المغرب الأوسط
فزّان
طنجة
سبتة
قرطاجنة
القيروان
سبيطلة
الجم
قفصه
تلمسان
طرابلس
صبراته
غدامس
برقه
السوس الأدنى
السوس الأقصى
مصمودة
أغمات
نفيس
ماسه
نول
كم

امبراطورية غانة

في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر من الشمال كان يقيم في منطقة السودان في غربي إفريقية قبائل زنجية، وكانت أكبر هذه القبائل وأكثرها انتشاراً قبيلة «الماندينغ» ومعناها الذين يتكلمون لغة الماندي. ولهذه القبيلة أسماء كثيرة الآن فالفولاني يسمونهم «مالي»، و يدعوهم العرب «مليل» أما البربر فيطلقون عليهم اسم «مليت» ويعرفهم الهاوسا باسم «وانقارا».

وهذه الجماعة لها عدد من الفروع الكبيرة، وغدا كل فرع كأنه قبيلة خاصة أو هكذا يظن بعضهم، كما يظن بعضهم الآخر أن أسماء القبيلة الكثيرة يدل كل اسم على شعب معين.

ومن أشهر هذه الفروع ــ السوننكي ــ والبمبارا ــ والديولا.

وإذا كان شمال شرقي مالي منطقة صحراوية انتشر منها الإسلام عن طريق القبائل وانتقالها بين الشمال والجنوب فإن جنوب غربي مالي منطقة سودانية وافرة المياه فقامت فيها ممالك متعددة ودخلها الإسلام بطرق مختلفة.

وكانت هذه الممالك موزعة تسيطر إحداها على جميعها عندما

تزداد قوتها، ولا تقضي عليها، وإنما تكتفي بفرض الجزية، فإذا قويت عادت وسيطرت على غيرها، وأصبحت المحكومة بالأمس حاكمة اليوم ومسيطرة، وقد تعود دولة منها للنهوض مرة ثانية ما دام لم يقض عليها، ولما كانت كل مملكة تسيطر على عدة ممالك لذا سميت أمبراطوريات بالاصطلاح الحديث. وكان أول الأمبراطوريات التي قامت في المنطقة «امبراطورية غانة».

في القرن الأول الميلادي استطاعت جماعة من البيض جاءت من الشرق أو من شمال أفريقية وبخاصة من برقة[1] أن تسيطر على جماعة ــ السوننكي ــ وأن تؤسس أول حكومة في تلك المنطقة وقد كان مقرها مدينة كومبي صالح التي تقع بين نهري السنغال والنيجر، في منطقة ــ أوكار ــ، وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فشمل مناطق واسعة بين أعالي نهري السنغال والنيجر، وكانت تعتمد على الزراعة إضافة إلى التجارة التي اشتهرت بها وبخاصة الذهب، حيث عرف ملوكها باسم ملوك الذهب، أما الدولة فقد عرفت باسم امبراطورية غانا.

---

(١) إن منطقة جنوب غربي اسباهي موطن البشر ــ على أغلب الظن ــ ومنها انتقل الإنسان إلى بقية الجهات.. وليس كما يتوهم بعضهم فيعد أن الجنس الفلاني أو العنصر الفلاني وجد في منطقة كذا فيخيل للقارىء أنه خلق هنا، وبالتالي فكان أصولاً متعددة للبشر وهذا ما يخالف الواقع ويناقض ما جاءت به العقائد.

إذن فقول جماعة ما أنها انتقلت من الشرق أو جاءت منه أمر محتمل ولا غرابة فيه، هذا مع العلم أن كثيراً من الجماعات البشرية تدعي أن أصولها من بلاد العرب لتربط نفسها بالعرب حملة الرسالة الإسلامية من باب الفخر والتبرك.

وفي القرن الثاني الهجري استطاع السوننكي طرد الجماعة البيضاء من البلاد، وتأسيس أسرة حاكمة بقيت في السلطة حتى دخل المرابطون المنطقة عام ٤٦٩ هـ. أما الجماعة البيضاء فقد اتجهت نحو بلاد التكرور واختلطت مع السكان، ولم تعد بيضاء مع الزمن نتيجة البيئة والحرارة والاختلاط مع الزنوج، واستطاعت هذه الجماعة أن تقيم هناك سلطة سياسية تحكم المنطقة وهذه الجماعة هي التي اشتهرت فيما بعد باسم الفولانيين، واستمرت في حكمها لبلاد التكرور حتى القرن الخامس الهجري.

استطاعت الأسرة السوننكية أن توسع نفوذها، وأن تسيطر على مدينة «أودغشت» وهي حاضرة قبيلة لمتونة التي هي نوع من صنهاجة، وكانت فيها حكومة ذات نفوذ من هذه القبيلة، وكان ذلك عام ٣٨٠ هـ. وضع ملك غانا على أودغشت حاكماً من السوننكي، إضافة إلى أنه في بعض الأحيان كان يقيم فيها حكام غانا أي أنها أصبحت المركز الثاني لحكام غانا. وقد عملت امبراطورية أودغشت في أيام قوتها على نشر الإسلام بين الزنوج وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكانت تجارة الملح هي الرئيسية وتنقل إلى بلاد غانا.

وقد اتسعت هذه الأمبراطورية كثيراً حتى شملت المنطقة الواقعة بين أعالي نهر السنغال والنيجر كلها من جهات الجنوب والشرق والغرب أما من ناحية الشمال فقد امتدت حتى بلاد البربر أو نستطيع أن نقول: أنها شملت أجزاء من موريتانيا والسنغال وغينيا ومالي في العصر الحديث.

كانت امبراطورية غانا تشمل عدة ممالك أو مناطق على كل منها ملك أو وال، وكان الحكم في بعض المناطق وراثياً. ومن هذه الممالك التي كانت قائمة:

أوكار: وهي قاعدة الحكم لامبراطورية غانة، وتقع بين واديي النيجر والسنغال الأوسطين، وهي: اليوم في جنوبي موريتانيا وشمالي مالي.

هود: في غربي ولاته، وتقع اليوم في موريتانيا الجنوبية.

ديارا: إلى الشرق من نهر السنغال الأوسط.

بامبوك: على نهر السنغال إلى الغرب من ديارا.

التكارنة: وهي في حوض السنغال الأسفل.

تاغانت: عند أودغشت، وهي في موريتانيا اليوم.

ونقارة: في أعالي نهر السنغال، وتقع في مالي.

كانياغا: في الجنوب عند أعالي نهري النيجر والسنغال وهي مركز ــ الصوصوــ، وتقع في مالي على نهر النيجر، شمال شرقي (باماكو).

باسيكور: شرقي العاصمة (كومبي صالح)، وبينها وبين منطقة ماسينا على نهر النيجر.

كانجابا: عند أعالي نهر النيجر، وهي مركز الماندينغ (مالي).

البامبارا: وهم من الماندينغ ويقيمون إلى الشرق من كانجابا.

الممالك البربرية: في الشمال مثل ممالك لمتونة وجدالة، وكانت كلما قويت دولة سيطرت على الممالك الثانية.

وكان الحكم فيها ينتقل إلى ابن الأخت.

من كل ما تقدم يدل على أن الإسلام قد انتشر في هذه المنطقة بل تذكر بعض الروايات أن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٢٢٣ هـ، وهو (بولاتان) بل وشن حرباً دينية ضد جيرانه من الوثنيين.

ومما زاد في انتشار الإسلام اعتناقه من قبل ملك التكرور الذي دخل فيه عام ٤٣٢ هـ. ولكثرة عدد المسلمين في امبراطورية غانا فقد أصبح لهم مركز وحرية في العبادة، حتى لقد كانت لهم مدينة خاصة بهم بالقرب من العاصمة أو بالأحرى نصف العاصمة، وأن الملك بنى مسجداً في عاصمته ليؤدي فيه من يزوره من المسلمين عبادته، بل وأن عدداً من الوزراء كانوا من المسلمين إضافة إلى أن المسلمين هم الذين كانوا يتولون أمر بيت المال والترجمة يقول البكري: «ومدينة غانة مدينتان سهليتان، إحداهما التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً، أحدها ــ يجمعون فيه ــ أي يقيمون فيه صلاة الجمعة، ولهم الأئمة والمؤذنون، وفيها فقهاء، وحملة علم، وحواليها آبار عذبة، منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات.

ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى «الغابة»(١)،

---

(١) الغابة: مدينة الملك وعرفت هكذا لكثرة الأشجار التي كانت تحيط بها. وترتفع بين بيوتاتها.

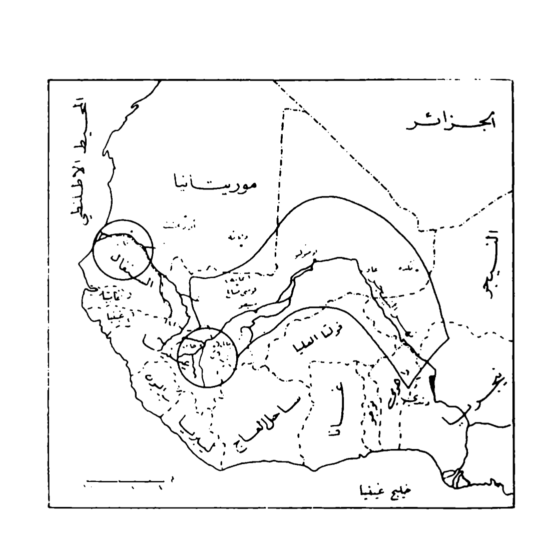
والمساكن بينها منفصلة، ومبانيهم من الحجارة وخشب السنط وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم ــ الدكور هو الصنم ــ وقبور ملوكهم. ولتلك الغابات حرس، ولا يتمكن أحد من دخولها ولا معرفة ما فيها، وهنالك سجون الملك، فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره» [١].

و يبدو أن المنطقة كانت آنذاك أكثر أمطاراً فكانت هناك أودية وروافد تجري نحو نهر النيجر، وتقع العاصمة (كومبي صالح) على أحد هذه الروافد، وربما تجمعت المياه في مناطق منخفضة وشكلت بحيرات، وقد تكون بحيرة (فاجوبين) Faguibine في غربي مدينة تومبوكتو الحالية بعض آثارها.

يقول الأدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: «غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطراً، وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً». ويقول كذلك عندما يتحدث عن السكان: «ولهم زوارق يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها» ويقول القلقشندي: «إنها مدينتان على ضفتي نيلها، إحداهما يسكنها المسلمون، والثانية يسكنها الكفار». و يقول البكري: «وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه».

---

(١) المغرب ص ١٧٤-١٧٥.



الجزائر
موريتانيا
المحيط الأطلنطي
فولتا العليا
ساحل العاج
خليج غينيا

إسلام امبراطورية غانة

كانت الأعمال الحربية مستمرة ــ كما ذكرنا ــ بين امبراطورية غانة والحلف القائم بين قبائل الملثمين في الشمال، إلا أن هذا الحلف لا يلبث أن يتصدع فتقوى عليه غانة، وتستعيد مدينة (أودغشت)، وتقتل زعيم (لمتونة) التي تتولى رئاسة الحلف، أمام هذه الهزيمة تخلت لمتونة عن زعامة قبائل الملثمين، وتتولى ذلك قبيلة (جدالة)، وتقف في وجه غانة... ويبدو أن حظ (جدالة) في القتال كان أفضل من حظ أختها (لمتونة) وذلك لقرب ديارها من غانة، ومعرفتها بأحوال تلك البلاد وطبيعتها، فاستطاعت أن تقف أمام غانة، وتوقف زحفها نحو الشمال.

كان زعيم (جدالة) في ذلك الوقت (يحيى بن ابراهيم)، وقد ذهب إلى الحج في تلك الآونة، وأثناء عودته التقى في القيروان بالفقيه (ابن عمران الفاسي) الذي عجب من جهل يحيى وأتباعه بالإسلام، ورأى أن يرسل معهم مرشداً يمكّن الإسلام في نفوسهم و يفقههم في الدين، ووقع اختياره على (عبد الله بن ياسين السجلماسي).

سافر (عبد الله بن ياسين) مع الركب الجدالي إلى بلادهم،

واستقر مع بعض تلامذته في جزيرة عند مصب نهر السنغال. فشيدوا لهم فيها رباطاً، تفرغوا فيه للعبادة، ودرسوا الجهاد، حتى إذا بلغ عددهم ألف رجل خرج بهم للجهاد قائلا لهم: (اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوفوهم الله، وأبلغوهم محبته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق، وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم، ولجوا في طغيانهم استعنا بالله عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا) فكانت حركة المرابطين المعروفة.

استطاع هؤلاء المرابطون فتح مدينة (أودغشت) عام ٤٤٦ هـ وانقاذها من مملكة غانة، ثم حملوا أهلها على اعتناق الإسلام، واستشهد (يحيى بن ابراهيم الجدالي) في المعركة التي فتحت فيها مدينة (أودغشت)، فخلفه في زعامة المرابطين (أبو بكر بن عمر) زعيم لمتونة، ولم يمض وقت طويل حتى استشهد عالم المرابطين (عبد الله بن ياسين) في حرب شنت ضد قبيلة (برغواطة)، وهكذا بقي (أبو بكر ابن عمر) وحده في الميدان، فاستعان بابن عمه (يوسف بن تاشفين) الذي أسس مدينة مراكش، ولكن لم يلبث أن وقع الخلاف بين الرجلين، فانصرف يوسف بن تاشفين نحو الشمال، وجاز بحر الزقاق إلى الأندلس، يساعد المسلمين على أعدائهم الصليبيين، بينما انكفأ (أبو بكر بن عمر) نحو الجنوب يعمل على نشر الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية. وكانت هذه المدة حافلة بدخول الناس في دين الله أفواجاً وبخاصة في منطقة السنغال حيث تحولت أسرة (الفولاني) إلى الإسلام عام ٤٦٩ هـ.

وفي الوقت نفسه كانت امبراطورية غانة قد ضعف أمرها،

وانكمشت سلطتها، وتفككت ممالكها، واستقلت بعض أقاليمها، واستطاع المرابطون بمساعدة (التكرور) دخول عاصمة غانة كومبي صالح عام ٤٦٩ هـ، وفرض الإسلام على جميع البلاد. وقبل ملك غانة (تنكامنين) الدخول في الإسلام، والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل الكثير من رعاياه في الإسلام.

ضعف أمر المرابطين، فاستطاع سكان غانة من السوننكي الاستقلال عن المرابطين إثر وفاة زعيمهم (أبو بكر بن عمر اللمتوني) وذلك عام ٤٨٠ هـ، وأعلن السوننكي الارتباط بالدولة العباسية مباشرة، وقد أصبحوا من المسلمين بل وشديدي الحماسة لنشر الإسلام، وتفرغ بعضهم للدعوة وأصبحت كلمة «سوننكي» مرادفة لكلمة داعية عند كثير من قبائل «الماندينغ» وأجبر ملوك غانة شعوبهم على لبس العمامة، وادعوا الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

كثرت المساجد، وعم تعليم القرآن الكريم وقواعد الدين واللغة العربية، وألحق كل مسجد بمدرسة، وغدت اللغة العربية اللغة الوحيدة للعبادة والثقافة كما أنها لغة التجارة.

ولكن مملكة غانة لم تلبث أن انهارت، وقامت على أنقاضها مملكة «الصوصو»، ولعل من عوامل الاضمحلال الذي أصاب مملكة غانة الجفاف الذي عم في المنطقة، فانتقلت جموع من السكان والقبائل نحو الجنوب، واستقرت في تلك الجهات التي هي أكثر أمطاراً، وهذا ما

جعل المناطق الشمالية وبخاصة أوكار التي كانت قاعدتها «كومبي صالح» يقل سكانها، ويضعف أمر التجارة فيها، فيتركها بعض الأغنياء و يظهر عليها أثر الفقر ونقص الحاجيات التي كانت تتوفر فيها بكثرة.

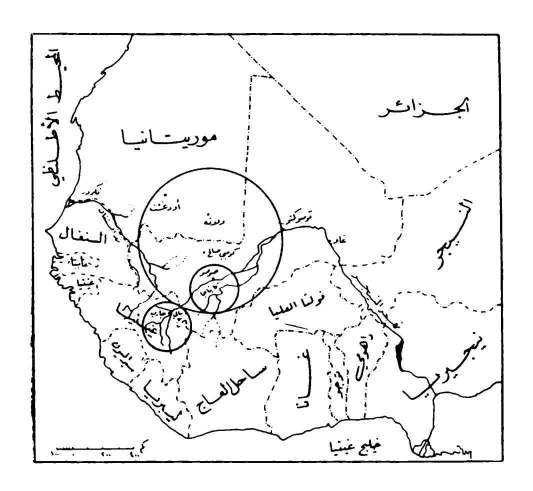
امبراطورية الصوصو

هاجرت جماعة من الفولانيين من بلاد تكرور واتجهت نحو الشرق، واستقرت في منطقة «كانياجا» واستطاعت بعد مدة من الزمن أن تؤسس طبقة حاكمة، حكمت شعب «الصوصو» وعرفت باسم «امبراطورية الصوصو».

طمع شعب الصوصو في الاستقلال بعد أن استطاع المرابطون فتح غانة، فاستقلوا في منطقتهم «كانياجا»، ثم بدؤوا بالهجوم على عاصمة غانة «كومبي صالح»، وقد تمكنوا من دخولها عام ٦٠٠ هـ، كما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد غانة وضمها إلى امبراطوريتهم الناشئة. وقد هرب عدد من المسلمين والتجار من مدينة كومبي صالح إلى الصحراء، وأسسوا مركزاً تجارياً جديداً في بلدة «ولاته» على بعد بضع مئات من الكيلومترات إلى الشمال من مدينة كومبي صالح، وعلى مر الأيام فقد نما هذا المركز التجاري، وأصبح من أهم الأسواق في الصحراء الكبرى. أما مدينة كومبي صالح عاصمة غانة فقد دمرها الصوصو، ومحي أثرها من التاريخ.

هاجم الصوصو دولة (الماندينغ) في منطقة «كانجابا» عام ٦٢٨ هـ وقتل ملك الصوصو (سومانجارو) ملك «الماندينغ» (ناري فامغان) وأولاده جميعاً باستثناء الصغير منهم، فقد تركه لصغره أو لضعفه ومرضه وهو «سندياتا» أو كما عرف باسم «ماري جاطه»،

ولكن لم يمض سوى خمس سنوات حتى استطاع (ماري جاطه) أن يؤسس جيشاً قوياً ويقوده لقتال الصوصو، وتمكن من الانتصار على الصوصو عام ٦٣٣ هـ في معركة فاصلة قتل فيها امبراطور الصوصو الذي تمزقت امبراطوريته من بعده. وسار ماري نحو عاصمة غانة القديمة ودمر ما بقي منها عام ٦٣٨ هـ ولكنه ترك المسلمين الذين فروا من (كومبي صالح) إثر غزو الصوصو ولجؤوا إلى (ولاته) وأسس (ماري جاطه) مملكة واسعة عرفت باسم «مملكة مالي».



مملكة مالي

أعاد (سندياتا) أو (ماري جاطه) دولة مالي، وهي قديمة حكمتها عدة أسر منها أسرة (تراوري) ومنها أسرة (كيتا) وكانت تتبع غانة، وبدأت تنمو وتتسع، في ظلها ثم استقلت، وقضى عليها الصوصو، ثم أعادها (ماري جاطه)، وقد نجا من القتل الذي لحق بأبيه وإخوته الأحد عشر، وكانت هذه الواقعة بين عام ٦٣٩ هـ إلى عام ٨٩٤ هـ وكانت تمتد فيما بين بلاد بورنو في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب، وبين جبال البربر في الشمال ونطاق الغابات في الجنوب، وتشمل من الدول الحديثة أجزاء من موريتانيا والسنغال وغامبيا وغينيا ومالي وساحل العاج وليبيريا وسيراليون.

حكمت هذه الدولة عدة أسر في أيام خضوعها لامبراطورية غانة ومن قبل، وآخر هذه الأسر أسرة (كيتا) التي ينتسب إليها (ماري جاطه)، وتدعي هذه الأسرة الانتساب إلى بلال الحبشي رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا قول نلاحظه في كثير من الحكومات والأسر الإسلامية من باب التبرك.

إن جد أسرة (كيتا) هو (موسى ديجيو) الذي حكم مالي ٥٩٧-٦١٥ هـ، واتخذ مدينة (جارب) التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته في التقوى والعمل الصالح، وربما هو كان المشهور في الكتب العربية باسم (بومندانه) ويقول بعض المؤرخين: هذا الرجل الحاكم كان أول من دخل الإسلام من ملوك مالي، ولكن ابن خلدون يقول: إنه أول من حج إلى مكة المكرمة وليس أول من أسلم.

خلف (موسى ديجيو) ابنه (ناري فامغان) في الحكم، واستمر حكمه لدولة مالي (٦١٥-٦٢٨ هـ)، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه بين قومه ولاسيا بين قبائل (لبمبارا). وفي أواخر أيامه هجم الصوصو على دولته وقضي عليه وعلى أبنائه ونجا منهم (ماري جاطه) ــ كما ذكرنا ــ.

يعد (ماري جاطه) وارثاً لأبيه (ناري فامغان) فقد انتصر على الصوصو عام ٦٣٣ هـ، وضم إليه أملاك امبراطورية غانة عام ٦٣٨ هـ. وفي العام نفسه نقل عاصمته من (جارب)[١] في (كانجابا) إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر (نهر سانكاراني)[٢] إلى الشرق من (جارب) وقد سميت (نياني)

(١) جارب: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى جنوبي مدينة (سيجوري)، وتقع اليوم في دولة (غينيا).

(٢) نهر سانكاراني: من روافد نهر النيجر ويشكل اليوم جزءاً من الحدود بين غينيا ومالي، ويرفد نهر النيجر عند مدينة كانجابا في مالي قريباً من الحدود الغينية على بعد ٦٥ كم منها.

واشتهرت باسم مالي. وأصبحت فيما بعد علماً لدولة الماندينغ، وأصبحت هذه المدينة مركزاً تجارياً هاماً إذ بدأ التجار يفدون إليها، ويقيمون فيها، وبعد عام ٦٣٨ هـ لم يشترك (ماري جاطه) في الأعمال الحربية، وإنما كانت جيوشه تصل إلى إمارات الهاوسا في شمال نيجيرية اليوم وهي (كانو) و(كتسينا) و(زاريا) وإلى سواحل المحيط الأطلسي وقلب الأدغال والغابات في الجنوب كما تتوغل شمالاً في الصحراء.

تولى حكم مالي بعد موت (ماري جاطه) عام ٦٥٣ هـ ابنه (منسى علي) وكان من أعظم حكام بلاده، محباً للسلام معروفاً بالتقوى والصلاح، وقد أدى فريضة الحج عام ٦٥٨ هـ. وفي أيامه ضمت مالي إليها (بامبوك) و(وانقاره)، كما بسطت نفوذها على دولة (صنغاي) الناشئة وأخذت منها عدداً من الرهائن لضمان خضوعها واستسلامها.

توفي (منسى علي) عام ٦٦٩ هـ، فتعرضت البلاد بعده لفترة من الاضطراب دامت من (٦٦٩-٧٠٧ هـ) تولى خلالها عدد من الملوك منهم:

١ً ــ (منسى علي) شقيق (منسى علي) وسميه حكم من ٦٦٩-٦٧٣ هـ.

٢ً ــ (خليفة) شقيق (منسى علي) وحكم من ٦٧٣-٦٧٤ هـ.

٣ً ــ (أبو بكر) سبط من أسباط (ماري جاطه) وحكم من ٦٧٤-٦٨٤ هـ.

٤ً ــ (ساركوه) مولى من موالي (أبو بكر) اغتصب العرش ٦٨٤-٧٠٠ هـ. غزا بلاد تكرورو (وانقاره) و(غاو) عاصمة (صنغاي)، وفي أيامه عم الرخاء وتوسعت التجارة، وقد أدى فريضة الحج عام ٧٠٠ هـ، وأثناء عودته عن طريق الحبشة والسودان هاجمته جماعة من الدناقل عند ساحل البحر الأحمر وقتلوه.

٥ً ــ (منسى قو) وهو ابن (ماري جاطه) وحكم من ٧٠٠-٧٠٥ هـ.

٦ً ــ (محمد) ابن (منسى قو) وحكم من ٧٠٥-٧١٠ هـ.

٧ً ــ (أبو بكر) وحكم من ٧١٠-٧١٢ هـ. وهو الذي سافر بالمحيط الأطلسي ليكتشف ما بعده، ولم يعد.

وبعده وقعت فتن واضطرابات انتهت بنقل العرش إلى أبناء أخت (ماري جاطه) وكان أولهم (منسى موسى) ابن أبي بكر الملك السابق. وهو الذي يعد من أعظم ملوك امبراطورية مالي، صالحاً ورعاً، يجيد العربية، أقام علاقات مع الدول القائمة في مصر والمغرب، فتح بلاده للمسلمين الفارين من الأندلس. وبلغت دولة مالي في عهده ذروة مجدها وقوتها واتساعها.

توفي (منسى موسى) عام ٧٣٨ هـ، وخلفه ابنه (مغان الأول) أو (منسى مغان) ودام حكمه من (٧٣٨-٧٤٢ هـ)، وفي عهده عادت الفرقة إلى البلاد، فهاجمت قبائل (الموش) المقيمة في إقليم (باتنغا) في فولتا العليا البلاد، وصلت إلى (تومبوكتو) فأحرقها، وأبادت حاميتها

من الماندينغ.

تولى (سليمان) بن (منسى موسى) عم (مغان الأول) وهو معروف معروف بالتقوى والصلاح والتفقه في الدين، واستمر حكمه من ٧٤٢-٧٦٢ هـ، وقد استطاع أن يعيد معظم البقاع التي خرجت عن طاعة مالي، ومع ذلك فقد فشل في استعادة (غاو) عاصمة (صنغاي). وقد بنى المساجد والمنارات، واستدعى الفقهاء من خارج البلاد، وأدى فريضة الحج عام ٧٥٢ هـ.

تولى حكم امبراطورية مالي بعد سليمان ابنه (قنبتا)، ولم يحكم سوى تسعة أشهر حيث مات بعدها، فأخذ الحكم (ماري جاطه الثاني) بن (مغان الأول) ٧٦٢-٧٧٦ هـ، وكان سيء السيرة مبذراً أتلف ما في خزائن الدولة، ولكنه كان حسن الصلة مع سلاطين المغرب ومصر.

جاء إلى الحكم (موسى الثاني) بن (ماري جاطه الثاني)، وكان أحسن سيرة من أبيه، ولكن وزيره استبد بالأمر، وحجر عليه، فحارب دولة (صنغاي) التي كانت قد احتلت أجزاء واسعة من دولة مالي، وتجاوزت جيوشه عاصمتها (غاو) دون أن تدخلها، كما حارب الملثمين في الشمال.

توفي (موسى الثاني) ٧٨٩ هـ فخلفه أخوه (مغان الثاني) إلا أنه قتل عام ٧٩٠ هـ في فتنة داخلية وأخذ الحكم (صندكي) زوج أم موسى، واستمر فيه حتى عام ٧٩٣ هـ، وتميزت فترة حكمه بحدوث فتن

كثيرة استغلها أحد أفراد الأسرة واسمه (محمود) فأخذ الحكم، وتولاه باسم (منسى مغان) عام ٧٩٣ هـ. وتختفي المعلومات عن ملوك مالي بعد هذه المدة حتى تندمج في دولة صنغاي عام ٨٩٤ هـ.

ومن أهم عوامل الضعف الذي منيت به دولة مالي:

١ ــ ضعف كثير من الحكام.

٢ ــ هجمات الطوارق المتلاحقة والمتتابعة والتي انتهت باستيلائهم على (تومبوكتو) و(ولا ته)، وسيطرتهم على معظم مناطق مالي الشمالية.

٣ ــ أعمال الغزو والتخريب التي كانت تقوم بها قبائل (الملوش) الوثنية.

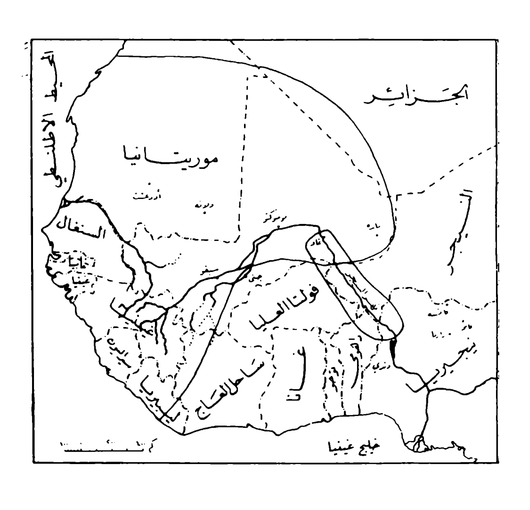
٤ ــ هجمات الفولانيين والتكارنة على (بامبوك).

٥ ــ انفصال دولة صنغاي عن مالي واستقلالها حوالي منتصف القرن الثامن الهجري إثر هرب الرهائن (علي كولن وسليمان نار) من مالي إلى غاو وتأسيسهم لامبراطورية صنغاي التي نجحت فيما بعد بالاستيلاء على مالي كلها وبسط سلطانها عليها.

ورغم كل ذلك بقيت مالي محتفظة بكيانها السياسي في (كانجابا) منطقتها الصغيرة التي نشأت فيها والتي هي قاعدتها الأولى، وكثيراً ما حاولت الخروج على ملوك الصنغاي، واستعانت بقوى خارجية فقد استنجدت بالعثمانيين عام ٨٨٦ هـ وطلبت حمايتهم، وطلبت المساعدة

من البرتغاليين الذين بدؤوا يثبتون أقدامهم على السواحل الغربية، وقد أرسلت البرتغال سفارة لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠-٩٤١ هـ إلى (منسى مالي) محمود الثاني، وكان نتيجة هذه السفارة جلاء الفولانيين التكارنة عن حوض نهر (فاليم)، وفي الوقت نفسه فقد شجع هذا (منسى مالي) على القيام بثورة ضد صنغاي عام ٩٤٠ هـ للتخلص من سيادتها، إلا أن الصنغاي قمعوا ثورته بشدة الأمر الذي أدى إلى قيام الفتن والانقسامات واعتداءات الجوار، إلى أن انتهى الأمر بالسيطرة المراكشية بعد القضاء على امبراطورية الصنغاي.

وأثناء انشغال أمراء الصنغاي في الكفاح ضد الغزاة، تحرك سلطان مالي (محمد الثالث)، كما تحرك سلطان (ماسنا) الفولاني (حمد آمنة)، ونجحا في التحرر من سلطة صنغاي، واستعادت مالي بعض أملاكها المفقودة، وطمعت في الاستيلاء على مملكة (جني) فهاجمتها عام ١٠٠٧ هـ، ولكن المراكشيين أيام السعديين وكانوا قد سيطروا على المنطقة ودخلوا (تومبوكتو) عام ١٠٠٠ هـ قد أبادوا قوات مالي، ومنذ ذلك التاريخ أفل نجم دولة مالي من تاريخ السودان الغربي، وإن كانت تظهر بعض الأحيان على شكل ضعيف، إذ حاول ملكها (ماما مغان) عام ١٠٨١ هـ أن يتوسع ولكنه هزم أمام ملك (السيغو) من (البمبارا) أحد فروع الماندينغ، فتقلصت دولته وخلفه (مامي كيتا) لمدة خمسة عشر عاماً، ثم خلفه أبناؤه من بعده، فتفرقوا بعد أن اقتسموا السلطة فيما بينهم، واستقر آخرهم في (باماكو).



الجزائر
موريتانيا
السنغال
فولتا العليا
ساحل العاج
خليج غينيا

امبراطورية الصنغاي

الصنغاي: مجموعة من القبائل الزنجية كانت تعيش في غربي نهر النيجر الأسفل، في المنطقة الواقعة اليوم شمالي بنين (الداهومي) وغربي نيجيرية إلى الغرب من نهر النيجر، ثم أخذت هذه القبائل تنتقل نحو الشمال مع نهر النيجر، ثم استقرت حوالي القرن السابع الميلادي أو الأول الهجري، وهم اليوم في مالي في منطقة (غاو) على نهر النيجر، وفي دولة النيجر عيد مجرى النهر وحول مدينة (أغاديس) في الداخل.

وفي الوقت نفسه هاجرت جماعات من قبيلة لمتونة البربرية إلى تلك الجهات، واستطاعت أن تقيم حكومة فرضت سيطرتها على قبائل تلك المناطق من الصنغاي، وقد تنقلت العاصمة مع التنقل نحو الشمال فكانت في (دندي) أول الأمر ثم (كوكو) وأخيراً استقرت في (غاو).

امتدت امبراطورية مالي في عهد (منسي علي) بن (ماري جاطه) كثيراً وبسطت نفوذها على دولة (صنغاي) الناشئة وذلك في منتصف القرن السابع الهجري، وأخذت منها عدداً من الرهائن لضمان

خضوعها واستمرارها، إذ سبق أن ذكرنا أن سيطرة مملكة على الممالك الثانية لا تقضي عليها وأن تكتفي بفرض الجزية عليها. وكان من هذه الرهائن ولدا ملك صنغاي (زاياسبي) وهما (علي كولن) و(سليمان نار)، وهما طفلان صغيران.

استطاع علي كولن وأخوه سليمان نار أن يفرا من الماندينغ، وأن يتجها نحو (غاو) فانقذاها من الحامية الماندينغية، وأسسا مملكة جديدة بدأت تتوسع على حساب دولة مالي، وذلك في عهد (مغان الأول) حوالي عام ٧٤٠ هـ، وكان علي كولن أن تولى عرش هذه المملكة، ولم يدم حكمه طويلاً حيث كان كبير السن فخلفه أخوه سليمان نار في الحكم. ولكن مدة استقلال (صنغاي) لم تدم طويلاً إذ عادت فخضعت اسمياً لسلطان مالي، ولكن ما لبث سلطان مالي أن بدأ يضعف على المناطق الشرقية التي توجد فيها مملكة صنغاي فقوي أمرها، وفي عهد ملك مالي موسى الثاني سار وزيره ماري جاطه إلى المناطق الشرقية ومع أنه استطاع تجاوز مدينة (غاو) إلا أنه لم يدخلها.

وفي عام ٨٢٣ هـ قام ملك (الصنغاي) محمد دوغو بحملة ضد ملك مالي فأخضع قبائل (البمبارة)، وثبت دعائم حكمه، وتخلص من سيطرة مالي التي كانت في مرحلة من الضعف وتكاد تقتصر على منطقة (كانجابا)، وتوفي محمد دوغو عام ٨٦٩ هـ فخلفه ابنه منسى علي) الذي يعد مؤسس امبراطورية (الصنغاي)، فقد استطاع الاستيلاء على مدينة (تومبوكتو) عام ٨٧٣ هـ، وطرد الطوارق منها،

وحرق أكثر أحيائها، وقتل الكثير من سكانها. وفي عام ٨٧٥ هـ، أخضع منطقة نهر النيجر كلها فاستولى على مدينة (جني)، كما سيطر على منطقة (باتنغا) مقر قبائل (الموش)، ولكنه لم يستطع إخضاع هذه القبائل له تماماً، وتوسعت مملكته حتى أصبحت امبراطورية، وقد حاولت مملكة مالي الاستعانة بالعثمانيين ٨٨٦ هـ، وطلبت أن تكون تحت حمايتهم.

وتوفي محمد دوغو عام ٨٩٨ هـ وخلفه ابنه (أبو بكر)، إلا أن قواد أبيه قد ثاروا عليه، وتمكن القائد (محمد بن أبي بكر الطوري) أن يهزمه، إلا أن أبا بكر توفي وانتقل الحكم من هذه الأسرة (زا) إلى القائد محمد الذي عرف باسم (اسكيا محمد) عام ٨٩٩ هـ. فبلغت دولة صنغاي أوج ازدهارها إذ نظم الادارة وجهز الجيش المدرب وكان نظامياً على غير القاعدة القديمة وفي الوقت نفسه فقد اهتم بالشؤون الإسلامية.

أدى (اسكيا محمد) فريضة الحج عام ٩٠١ هـ، وعند عودته من الديار المقدسة اتخذ حركة توسعية ذات مظهر إسلامي واضح حين اتجه إلى قبائل (الموش) الزنجية الوثنية فأعلن الجهاد، وطلب من ملوك هذه القبائل الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فلما أبوا حاربهم وانتصر عليهم كما توسع في الغرب فواصل تقدمه على سواحل المحيط الأطلسي إذ ضم بلاد الماندينغ والفولاني إليه كما وصل إلى الصحراء في الشمال، أي أنه ضم منطقة السافانا كلها إذ وصل في الشرق إلى بحيرة تشاد بعد أن ضم إليه إمارات الهاوسا.

وفي عام ٩٣٥ هـ قام أبناؤه عليه فأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه (موسى) الذي نفاه إلى جزيرة بعيدة في نهر النيجر، ولكن موسى قد قتل عام ٩٣٨ هـ، وتولى بعده أخوه (محمد بنكة) واستمر حكمه حتى عام ٩٤٤ هـ حيث عزل وتولى بعده أخوه (اسكيا اسماعيل) فحكم عامين، وأعاده أباه (اسكيا محمد) وكان قد كف بصره ثم مات عام ٩٤٩ هـ.

وفي هذه المدة من الفوضى حاولت مملكة مالي النهوض والاستنجاد بالبرتغاليين، فارسلت البرتغال سفارة لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠-٩٤١ هـ فقامت مالي بثورة ضد (الصنغاي) ولكن قمعت بشدة من قبل (محمد بنكة).

تولى حكم (الصنغاي) (اسكيا اسحق) عام ٩٥٠ هـ، وفي أيامه ساءت العلاقة بين ملوك الصنغاي وملوك المغرب.

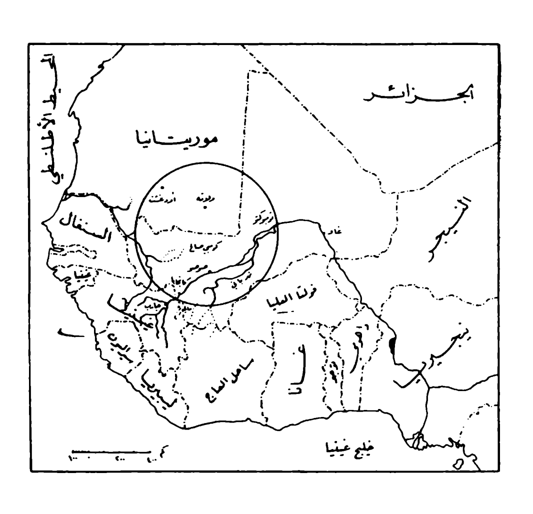
ثم جاء إلى الحكم (اسكيا داود) عام ٩٥٦ هـ، وفي عهده ثارت مملكة مالي عليه، فارسل إليها حملة تغلبت عليها، وزادت العلاقات سوءاً بينه وبين المغرب، وتوفي عام ٩٩٠ هـ.

جاء إلى حكم الصنغاي بعد (اسكيا داود) ابنه (اسكيا حاج محمد الثاني)، ودام حكمه خمس سنوات حدث أثناءها مناوشات بين المغرب وبين دولته. وبعد أن خلعه إخوته عام ٩٩٥ هـ تولى مكانه أخوه (محمد بن اسكيا داود) الذي حكم ثلاث سنوات، وجاء بعده (اسكيا اسحاق الثاني) الذي تردت العلاقات في أيامه بينه وبين المغرب، فجاءت حملة مغربية هزمت الصنغاي في معركة (تندى)

واستولت على (غاو) عاصمة امبراطورية الصنغاي.

حصلت مفاوضات بين قائد الحملة المغربية وملك الصنغاي انتهت بوقف الحرب ووضع شروط للصلح، إلا أن ملك المغرب (منصور السعدي) قد رفض هذه الشروط فاستؤنفت الأعمال الحربية من جديد، وهزمت الصنغاي مرة ثانية، فثار الشعب على الملك الذي فر من قاعدة حكمه، فتولى أمر تسيير البلاد رئيس الديوان (محمد كاغ) الذي لم يلبث أن نصب نفسه امبراطوراً وتسمى باسم (اسكيا) إلا أن الشعب لم يقبل به، فعينوا ملكاً عليهم هو (اسكيا نوح) الذي تولى عام ١٠٠٢ هـ، وبذا أصبح في البلاد ملكان أحدهما يقر بسيادة المغرب، والآخر لا يعترف بذلك. وحاول (اسكيا نوح) أن يبث روح المقاومة في أبناء البلاد فألف جيشاً قوياً وبدأ بحرب المقاومة وقد استطاع خلال أربع سنوات أن يذيق جيش المغرب والحاميات الموجودة في بلاد الصنغاي الويلات وأن يكبدها الكثير من الأنفس وخاصة أن الامدادات قد توقفت من بلاد المغرب.

أرسل ملك المغرب عدة جيوش إلى بلاد الصنغاي مما اضطر (اسكيا نوح) إلى الهرب ومغادرة البلاد، وانتهت المقاومة بوفاته عام ١٠٠٤ هـ، وتفككت البلاد وآل الحكم فيها إلى رجال القبائل وعم الظلم، وانتشرت المجاعة، بذا انتهت امبراطورية الصنغاي.



الجزائر
موريتانيا
المحيط الأطلنطي
السنغال
النيجر
فولتا العليا
ساحل العاج
نيجيريا
خليج غينيا
غينيا

البامبارا

البامبارا: جماعة من الماندينغ كانت تقيم على حوض نهر النيجر الأعلى في وادي نهر (باني) أحد روافد النيجر. وتتبع دولة مالي ما دامت جزءاً منها.. وعندما ضعفت دولة مالي وفدت امبراطورية الصنغاي نجح (البامبارا) في تأسيس إمارة صغيرة حول مدينة (سيغو) على نهر النيجر.

خضعت إمارة (سيغو) في بداية أمرها إلى (تومبوكتو) التي كان يحكمها باشوات الذين اشتهروا باسم (الأرما)، وهم مولدون من آباء بربر وأمهات زنجية، وبدأت إمارة (سيغو) تتوسع، ففي عام ١٠٧١ هـ تخلصت من سيادة (تومبوكتو) ثم فرضت عليها الجزية عام ١٠٨١ هـ، وامتدت (سيغو) من (كانجابا) في الجنوب إلى (تومبوكتو) في الشمال وإلى الصحراء، وأصبحت ملجأ للفارين إذ التجأ عليها الشريف علي بن حيدر من المغرب خوفاً من بطش السلطان. كما أنه في العام نفسه استطاع من طرد ملك (مالي) (ماما مغان كيتا). ثم حدثت فتن انتقل الحكم إثرها إلى أسرة ديارا وذلك عام ١١٦٤ هـ، وقضي على دولة (سيغو) عام ١٢٧٨ هـ الحاج عمر سلطان التكارنة في (فوتا جالون) حيث قاوم الفرنسيون توسعه نحو المغرب فاتجه إلى

الشرق.

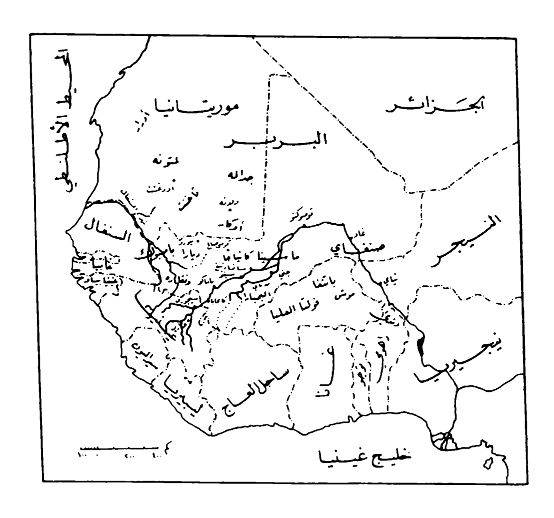
وأقام البامبارا إمارة أخرى في غربي (سيغو) بل إن مؤسسي الإمارتين كانا أخوين. وكان مركز الإمارة الثانية (كاآرتا Kaarta) شمال نهر (باكوي Bakoy) أحد فروع نهر السنغال، وقد رفضوا سيادة إمارة (سيغو) عليهم، وقد وقع خلاف بين هاتين الإمارتين وانتهت الحروب بانتصار إمارة (سيغو)، وعرف حكام كاآتا بلقب (مساسيMassassi) الذي يقابل كلمة (منسى) في مملكة مالي. ومن أشهر ملوك هذه الامارة (الماسا أبو بكر) الذي وسع إمارته وقد قابل المستعمر (منجو بارك) الذي يسمونه مكتشفاً عام ١١٢١ هـ، وآخر سلاطين هذه الإمارة (كانديان) وكان مركز حكمه في (نيورو)، وقد تعرض لغزو الحاج عمر سلطان التكارنة عام ١٢٧٧ هـ.

بعد زوال دولتي البامبارا بقي الماندينغ منقسمين على أنفسهم، وقد ظهر فيهم زعيم قوي عام ١٢٧٧ هـ، أي في الوقت الذي زالت فيه إمارات البامبارا وهذا الزعيم هو ساموري توري، وكان ظهوره في منطقة وسولو، واستطاع أن يبسط نفوذه على جميع قبائل الماندينغ خلال مدة عشرين سنة ١٢٨٧-١٢٠٧ هـ وأن يوحد صفوفهم إذ كانوا متفرقين جنوبي دولة التكارنة التي يقودها الحاج عمر.

اتخذ ساموري توري لقب إمام، وتصدى لمقاومة الفرنسيين من عام ١٣٠٠-١٣١٦ هـ، فاحتل الفرنسيون عاصمة (بيساندوغو) عام ١٣٠٩ هـ ثم احتلوا (سيغو) وتومبوكتو عام ١٣١٠ هـ.

هرب ساموري توري إلى أعالي نهر فولتا واستمر في مقاومة

الفرنسيين فقبض عليه عام ١٣١٦ هـ في أعالي ساحل العاج ونفوه إلى الغابون حيث توفي هناك عام ١٣١٨ هـ.



إلى جانب إمارات البامبارا ظهرت في المنطقة إمارات ثانية ذات أهمية منها، إمارة لقبائل الفولاني في منطقة (ماسينا) على نهر النيجر جنوبي (تومبوكتو)، وقد وجدت جماعة من الفولاني في هذه البقعة منذ

القرن الثامن الهجري، وظلوا فيها إلى القرن الثالث عشر يقرون لملوك مالي بالسيادة، ثم خضعوا لباشوات تومبوكتو وأخيراً لملوك (البامبارا) في (سيغو)، وبدؤوا يدخلون في الإسلام في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري وقاموا بحركة من الجهاد ضد أبناء جنسهم من الوثنيين، فاستنجد الوثنيون بملوك البامبارا ولكن المسلمين استطاعوا التغلب وهزموا جيش (سيغو)، وأسسوا مملكة إسلامية عام ١٢٢٥ هـ في (ماسنا) حكمت المنطقة كلها.

وأقام التوكلور إمارة (فوتا جالون) في جنوب الحوض الأدنى لنهر السنغال وهم من المسلمين وقد دخلوا في هذا الدين منذ مدة طويلة وأسهموا في حركة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري. وفي القرن التاسع كونوا أسرة حكمت المنطقة، وظهر منهم عام ١٢٥٤ هـ الحاج عمر الذي وحد السودان الغربي من (فوتا جالون) إلى (تومبوكتو) تحت سلطانه.

وفي عام ١٢٧١ هـ قام الحاج عمر بغزو بلاد (كاآرتا) فدانت له، ثم حاول مهاجمة إمارة (سيغو) بالتعاون مع ملك (ماسينا) الفولاني إلا أن الأخير رفض ذلك، فاضطر الحاج عمر إلى التوجه نحو الغرب إلى منطقة السنغال الأوسط، وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون يبسطون نفوذهم على تلك الجهات فأوقفوا تقدمه، فعاد الحاج عمر مرة أخرى إلى الشرق، واحتل إمارة (سيغو) عام ١٢٧٨ هـ و(ماسينا) عام ١٢٧٩ هـ ثم (تومبوكتو) عام ١٢٨٠ هـ.

قام (البامبارا) في (سيغو) والفولاني في (ماسينا) بثورة عليه

انتهت بمقتله عام ١٢٨١ هـ.

تنافس أبناء الحاج عمر من بعده على السلطة، ودخلوا في حروب فيما بينهم، وأساؤوا خلالها إلى السكان، ونشروا الخراب في معظم المنطقة فكرههم الناس، وكان آخرهم الأمير أحمد الذي توفي عام ١٣١٦ هـ إثر هزيمة الفرنسيين له أثناء تقدمهم نحو الشرق حيث وجدوا الطريق ممهدة أمامهم لاحتلال البلاد.

الاستعمار

في الوقت الذي كان فيه المسلمون يجوبون معظم أرجاء إفريقية وبخاصة الأقسام الشرقية والشمالية والغربية منها، و ينشرون فيها الدين الإسلامي واللغة العربية كما يضعون المؤلفات الكثيرة عن هذه القارة، كانت أوروبا في هذا الوقت تجهل كل شيء عن إفريقية اللهم إلا ما عرفته عن طريق المؤلفات العربية.

وعندما اشتد الصراع في بلاد الأندلس بين المسلمين والنصارى، وعجز الاسبان والبرتغاليون عن اقتحام معاقل المسلمين واخراجهم منها فكروا في الابحار على سواحل القارة الغربية لمعرفة قوة المسلمين في تلك القارة وبخاصة أنها كانت الاحتياطي لمسلمي الأندلس والدعم لهم في الحروب السابقة التي قادها المرابطون والموحدون من بعدهم، فإذا كان الضعف في إفريقية بادياً على المسلمين دخلوها وأحاطوا بهم، وإن كان غير ذلك اتخذوا مراكز لهم على السواحل وأفادوا من التجارة وانتظروا حتى ينظروا أمر المسلمين.

وصل بعض البحارة الأوروبيين إلى نهر السنغال عام ٧٤٧ هـ، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ هـ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغين) الصغيرة، واحتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، وظل هؤلاء سادة هذه المناطق حتى

أواخر القرن التاسع الهجري إذ بدأ الفرنسيون يترددون على الشواطىء السنغالية، وينشئون مراكز الإقامة لهم في بعض أنحائها.

وجد هؤلاء الأوروبيون قوة المسلمين في داخل إفريقية فأيقنوا أن دخولهم إليها أمر صعب كما أنه من المحتمل أن يقوم هؤلاء المسلمون بدعم الأندلس، لهذا كله فكروا بالبقاء على السواحل وعدم القيام بمغامرات في الداخل.

ضعف أمر المسلمين في الأندلس كثيراً، وزادت الإمدادات الأوربية للإسبان والبرتغال وبذا خرج المسلمون من الأندلسي عام ٨٩٨ هـ، وقام الاسبان والبرتغاليون بمحاولات لمتابعتهم ومحاولة تطويقهم من الجنوب والشرق، فسار الاسبان نحو الغرب وعرفوا أمريكا، وسار البرتغاليون نحو الجنوب واستطاعوا الالتفاف حول إفريقية، ووصل كلاهما إلى الشرق، وأثريا ثراء كبيراً نتيجة التجارة والمعرفة الجغرافية وأعمال النهب والسلب التي قاموا بها، وأصبح لكل منهما امبراطورية واسعة.

ومع هذه القوة وهذا الثراء فقد استطاعوا السيطرة على أجزاء من العالم الإسلامي الذي كان قد أصابه الضعف وتفككت أمصاره بعضها عن بعض، كما قامت دولة أوربية أخرى مثل فرنسا وانكلترة وهولندة وبلجيكا وروسية تنافس اسبانية والبرتغال لما رأت من قوتها والافادة من مستعمراتها وكل منها تحاول أن تحصل على غنيمة من العالم الإسلامي. وفي الوقت نفسه فقد ضعف أمر المسلمين في غربي إفريقية بل حاولت بعض الإمارات الاستعانة بالبرتغاليين ــ كما

رأينا ــ عند ذلك تحركت القوى الأوربية نحو غربي إفريقية وكأنها انفلتت من عقالها.

كانت المحاولات الأوربية الأولى كجس نبض فسارت باسم الاكتشافات، وكانت أولى الرحلات إلى الداخل موجهة إلى حوض نهر النيجر عام ١٢١٠ هـ، وقد انطلقت من (غامبيا) على طول نهر غامبيا، وقد استطاع رائد هذه الرحلة (منجو بارك) الوصول إلى مدينة (سيغو) على نهر النيجر، ثم توغل إلى أبعد من ذلك في رحلته الثانية عام ١٢٢٠ هـ. وتعددت بعد ذلك الرحلات وبخاصة الأفرنسية منها إلى مناطق غربي إفريقية، ولم يكن هؤلاء الرحالة إلا رسل بلادهم للتعرف على ثروات البلاد وإمكانية استغلالها واستثمارها، وهكذا لم تكن هذه البعوث التي حملت الصفة العالمية إلا بداية لحركة استعمارية واسعة النطاق للقارة الافريقية. ولما تم لهؤلاء الرحالة التعرف على البلاد والكشف على إمكاناتها وثرواتها بدأت مرحلة جديدة من النشاط في المنطقة وهي مرحلة الاستيلاء ثم الاستعمار بأسوء صوره وأشكاله.

استطاعت فرنسة التوغل إلى غربي إفريقية عن طريق نهري النيجر والسنغال والقضاء على مملكة (الحاج عمر) عام ١٢٨١ هـ، وحكومة (ساموري توري) عام ١٣١٦ هـ ــ كما ذكرنا ــ وبسطت نفوذها على معظم السودان الغربي وضمت إلى قواتها العسكرية وحدات من القبائل الوثنية مثل البامبارا في مالي كانت خير عون للمستعمرين في حكم البلاد بالسيف والنار. وتبع ذلك عملية استغلال واسعة النطاق

في معظم تلك المنطقة من قبل الحكومة الفرنسية، وفي غيرها من المناطق من قبل الدول الإستعمارية الأخرى، وبدأت باستغلال الإنسان الافريقي، بل استغلال إنسانيته، فنقل آلاف منهم إلى العالم الجديد (أمريكا) وبيعوا فيها رقيقاً لأصحاب المزارع الكبيرة هناك وإلى الشركات للعمل في المناجم، وقد أصبحت المراكز الساحلية التي أقيمت على سواحل غربي إفريقية موانىء تساق إليها أفواج الرقيق من كل جهة، وأدوات الموت موجهة إليهم، وربما كان ذكر الحوادث التي يقاد فيها الزنوج نحو السفن وعمليات الاختطاف للاطفال والشباب والفتيات تحز في النفس لما فيها من مآسٍ وأحزان، ونحرص على أن نجنب القارىء منها.

استمرت هذه المأساة مدة من الزمن، حتى إذا انتهى عهد الرقيق، وقامت الدول الاستعمارية نفسها تحرمه ـ لا إنسانية وتقى ـ إنما تخمة وخوفاً على اقتصادها من منافسة البضائع الرخيصة التي يعمل في انتاجها الزنوج، عند ذلك بدأت مرحلة جديدة من الاستعمار للقارة كلها تميزت بوضع خطة لسياسة جديدة تكفل للدول الاستعمارية السيطرة على البلاد وعلى مواردها المختلفة واتبعت في سبيل ذلك مختلف الوسائل اللاإنسانية من تمييز عنصري على أساس اللون والجنس، ومن نظام للسخرة يفرض على الإفريقي العمل في فراغ المستعمرين أو في المناجم أو في مجالات الاستغلال الأخرى.

وفي هذه الحالة أهملت في البلاد كل الخدمات الإنسانية والاجتماعية التي يمكن أن تقدم لأ بناء إفريقية على حين كانت تقدم

أرق هذه الخدمات للمستعمرين، فأخذت الأمراض تفتك بالافريقيين فتكاً ذريعاً وتقضي على المئات منهم إضافة إلى ما كانت تفعله المجاعات ونقص المواد الغذائية الضرورية.

كما اتبعت الدول الاستعمارية سياسة أخرى وهي محاولة إبقاء الشعب في جهل تام حتى يبقى لا يدري بالذي حوله ــ وهذا يعني بالنسبة إلى الدول الاستعمارية كل ما من شأنه أن يرفع الجهل عن الأمة المنكوبة بهم، ويلفت نظرها إلى وجوب التحرر من نير الاستعمار، لذا بدأت أول ما بدأت به وبخاصة في البلدان الإسلامية بمحاربة الإسلام، وهذا ما حدث فعلاً في بلاد مالي من قبل الحكومة الفرنسية. وفي الوقت نفسه فقد فتحت الدول الاستعمارية الباب على مصراعيه لدخول الإرساليات التبشيرية المدعومة بامكانات مادية ضخمة من الدول الاستعمارية كلها ومن اتحاد الكنائس العالمي، وقد فتحت هذه الإرساليات المدارس وأقامت المشافي، ووضعتها تحت تصرف من يعتنق النصرانية... فكان أمام الافريقي إما أن يرضى بالبقاء في ربقة الجهل والمرض متحدياً السياسة الإستعمارية والإرساليات معاً أو يرضخ لها ويقبل على هذه المدارس والمشافي وغالباً ما كان يفضل الحالة الأولى لهذا فقد تعلم وتدرب من أقبل عليها، وتسلم أمور البلاد بعد خروج الاستعمار ولكن بتأييده أيضاً أما الثاني وهو الافريقي المسلم فقد بقي تبعاً، وفي حالة من الجهل والفقر والمرض.

إن أي تجمع يجب أن يتبع ويخضع سياسياً واقتصادياً وثقافياً لسيادة فرنسا وهذا ما كان على الافريقيين أن يعرفوه، ودارت

تجمعاتهم السياسية حول هذه الفكرة وعملت بصورة أو بأخرى لنقل أو تعديل علاقة التبعية والسيادة التي بين الافريقيين والفرنسيين، وكان من الصعب أن يستطيع أي تجمع إفريقي التمتع بالبقاء في ظل القانون ــ الذي وضعته الدولة الاستعمارية ــ دون أن يتعرض للحل أو الالغاء فيما لو طلب انسحاب فرنسة المباشر من البلاد. لذلك عملت الأحزاب والحركات الوطنية الافريقية في معظمها من الناحية العملية بين فكرتين متضادتين:

الأولى: وكانت تطالب بتصفية الاستعمار.

الثانية: وكانت تقبل بالأمر الواقع مع التعديل التدريجي والذي ترضى به الادارة الفرنسية، ومن الأحزاب التي قامت في البلاد:

١ ــ حزب الاتحاد السوداني، وكان يدعو لاقامة حكم شبيه بحكم الحاج عمر.

٢ ــ حزب التجمع الديمقراطي الافريقي وكان في غربي إفريقية كله، وكان لهذا الحزب فروع في مختلف المستعمرات الفرنسية في غربي إفريقية.

وقد تعرضت إفريقية الفرنسية إلى تغييرات عديدة في الحدود والأقسام السياسية، وقد ظلت كل مستعمرة خاضعة لحاكم فرنسي عام يتلقى أوامره مباشرة من وزير المستعمرات الفرنسي ولكن لم تلبث أن ظهرت مفاسد هذا النظام، لذلك فكرت فرنسة في تجميع بعض المستعمرات في وحدات اتحادية، ومن هذه الوحدات كانت إفريقية الغربية الفرنسية التي تضم موريتانيا ــ السنغال ــ غينيا ــ ساحل

العاج ــ فولتا العليا ــ مالي ــ النيجر ــ داهومي.

وفي عام ١٣٢٢ هـ شكلت فرنسا إقليماً في منطقة مالي وسمي (السنغال العليا والنيجر) ثم بدل هذا الاسم عام ١٣٣٩ هـ وأصبح السودان الفرنسي.

نص دستور فرنسة عام ١٣٦٥ هـ على تكوين مجلس عام في كل اتحاد، وينتخب أعضاؤه من بين الجمعيات الإقليمية في وحدات الاتحاد، وقد كانت قوانين الانتخاب معقدة، وجرت الانتخابات الأولى، ونجح الوطنيون الإفريقيون.

وعدل الدستور عام ١٣٧٦ هـ وأصبح يقوم بجانب المجلس الوطني الإقليمي، مجلس تنفيذي يمثل السلطة ويرأس هذا المجلس التنفيذي حاكم الاقليم الذي يعين قسماً من المجلس بينما يتم أخذ القسم الثاني بالانتخاب.

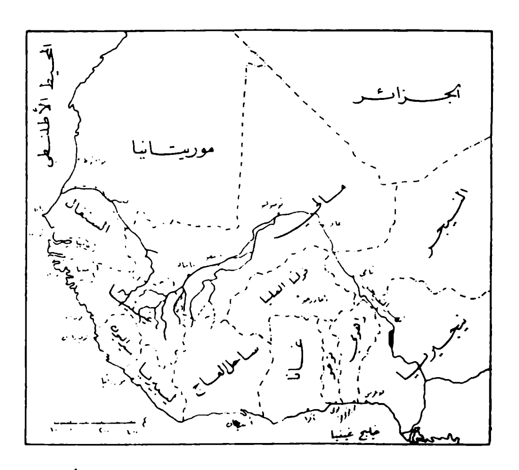
وفي عام ١٣٧٧ هـ عقد مؤتمر في باماكو يضم أقاليم إفريقية الغربية، وكان من مقرارته ضرورة اعتراف فرنسة بحق تقرير المصير. وخشي الفرنسيون اندلاع الحرب ــ كما حدث في الجزائر التي كانت ثورتها مشتعلة ــ فأصدر رئيس وزراء فرنسة غي موليه قانون الاصلاح الإداري، وينص على إجراء انتخابات في كل إقليم لتكوين جمعيات عامة تتولى تشكيل الوزارة.

وفي عام ١٣٧٨ هـ جاء ديغول إلى حكم فرنسة، وفكر في الحفاظ على مستعمرات فرنسة فيما وراء البحار، ففرض دستوره وأعطى حرية لكل إقليم أن يصوت على الدستور بـ «نعم» أو «لا» وينص هذا

الدستور على أن الإقليم الذي يقبل الدستور يصبح عضواً في مجموعة الشعوب الفرنسية، ويشكل حكومة محلية، ويتمتع بالاستقلال الداخلي، على أن تكون السلطة المركزية لفرنسة في الدفاع والاقتصاد والشؤون الخارجية كما يمكن أن يعقد اتحاد بين إقليمين أو عضوين في المجموعة الفرنسية، أما الأقاليم التي لا توافق على الدستور فتحصل على الاستقلال التام، وعندها تقطع فرنسة عنه مباشرة كل معونة فنية كانت أو مادية أو إدارية، ولكن صحب هذا الاستفتاء أنواع من التهديدات والوعيد، حتى أن القسم الكبير من السكان قد قاطع الاستفتاء ولهذا كانت النتيجة قبول دستور ديغول في أغلب الأقاليم.

وتكونت جمهورية مالي ذات الاستقلال الذاتي ضمن المجموعة الفرنسية، وألغيت وظيفة الحاكم العام، وتشكلت وزارة «موديبو كيتا».

وفي عام ١٣٧٩ تم اتحاد بين السودان الفرنسي والسنغال أطلق عليه اسم مالي رمزاً للمملكة التي ازدهرت في القرنين السابع والثامن الهجريين ــ كما مر معنا ــ وانتخب موديبو كيتا رئيساً لهذا الاتحاد، وحصل هذا الاتحاد على الاستقلال ضمن الجماعة الفرنسية عام ١٣٨٠ هـ. ولكن لم يلبث إن انحل هذا الاتحاد بعد ثلاثة أشهر من قيامه بسبب خلافات في السياسة، وأعلن السودان نفسه جمهورية مستقلة استقلالاً تاماً مع الاحتفاظ باسم مالي، وانتخب (موديبو كيتا) رئيساً للجمهورية بالاجماع عام ١٣٨١ هـ. وانتقد المعاهدة المعقودة مع فرنسة، وتكللت المفاوضات التي جرت مع فرنسة بالنجاح بشأن انسحاب القواعد الفرنسية من مالي. وينتمي (موديبو كيتا) إلى أسرة



كيتا التي أسست امبراطورية مالي أيام ماري جاطه بعد أن قضى الصوصو على مملكة مالي وأسرة كيتا بالذات لهذا كان للانتماء أثر في شهرته وانتخابه.

وفي عام ١٣٨٨ هـ انتهت مدة رئاسة موديبو كيتا ونحي عن الحكم بعد حركة عسكرية قادها (موسى تراوري) وهو ملازم أول وينتمي إلى أسرة تراوري التي كانت تحكم مملكة مالي قبل كيتا، وتولى تراوري رئاسة الجمهورية، وتم تشكيل لجنة عسكرية من أربعة عشر عضواً.

مَع السّــــكان

يقدر عدد سكان مالي عام ١٣٩٧ هـ بخمسة ملايين ونصف المليون، وبذا تكون الكثافة خمسة أشخاص في الكيلو المتر المربع الواحد. ويبلغ معدل الزيادة السنوية بـ ١,٩٪ على أن الغالبية العظمى من السكان تتركز في الجزء الجنوبي من البلاد وبخاصة حول نهر النيجر إذ أن الأجزاء الشمالية تشغلها الصحراء، وأهم المجموعات الجنسية هي:

١ ــ **الماندينغ:** وتعني هذه الكلمة مجموعة الشعوب التي تتكلم لغة الماندي، ولهذه المجموعة أسماء كثيرة تدل على المجموعة نفسها، إذ أن كل شعب يطلق عليها اسماً خاصاً حتى كثرت هذه الأسماء وسببت إشكالات كثيرة فقد وهم بعضهم، وظن أن كل اسم يدل على شعب خاص، واخطأ بعضهم الآخر للتشابه.

فالعرب يسمونهم «مليل».

والفولاني يعرفونهم «مالي».

والبربر يطلقون عليهم اسم «مليت».

والهاوسا يدعونهم «وانقارة»، ولعل هذا الاسم يطلق على فرعين وهما «السوننكي» و«الديولا».

والبامبارا إحدى جماعات هذا الشعب يسمونهم «مالي».

والتكرور يلقبونهم «المالنكي».

وقبائل نهر غامبيا يدعونهم «مانديغ».

وهم يطلقون على أنفسهم اسم «الماندي» أي باسم اللغة التي يتكلمونها. وتقدر نسبة هذا الشعب في البلاد بـ ٤٠٪ من مجموع السكان، ويدعي أن أصله من الشرق، وهم سودانيون بل أفضل من يمثل الجنس السوداني، وهم عادة تقاس بالنسبة إليهم الفوارق مع القبائل السودانية الزنجية التي تعيش على سواحل خليج «غانا»، لذا يمكن أن نعدهم أقرب الناس جميعاً للجنس الزنجي الذي لم يختلط بغيره، على الرغم من أنهم اختلطوا مع البربر الحاميين في الشمال.

وأهم الصفات التي يمتاز بها هذا الشعب، القامة الطويلة إذ أن المعدل الوسطي لطول الفرد هو ١٧٢ سم، والبشرة السوداء الرمادية، والرأس الضيق، والشعر الأجعد، والجبهة البارزة، والأنف المفلطح، والشفاه الغليظة المقلوبة مع قلة في شعر الوجه والرأس.

ويقول عنهم الحسن الوزان: «إنهم أعظم أجناس إفريقية رقياً ومدنية، وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام». ويمتدح الرحالة الحاليون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم.

أما (ريد) فقد وصفهم بقوله: «شعب طويل القامة، حسن المنظر،

مشرق اللون، مسلمون متدينون، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة ولكنهم أيضاً يزرعون القطن والفول السوداني وأنواعاً مختلفة من الغلال» كما يقول «وقد سررت كثيراً بلطفهم وسجاياهم الكريمة، ومنظر نسائهم الجاد المحتشم ونظافة قراهم وهدوئها».

وهم عدة فروع أشهرها:

آ ــ المندنكا أو المالنكا: وهو الفرع الرئيسي.

ب ــ السوننكي أو الساراكولية: وهم من الفلاحين في المناطق الغربية.

جـ ــ الديولا أو الجولا: ويعيشون في معظم مناطق مالي ويشتغلون بالتجارة.

د ــ البوزو: ويقومون بصيد السمك.

وهذه الفروع كلها مسلمة.

هـ ــ البامبارا: وهم وثنيون وتشتهر قبائل السوموتو منهم بصيد السمك.

ومن الفروع الأخرى الكاسونكا والجالونك وغيرها...

٢ ــ الصنغاي: وهم زنوج يعيشون في محاذاة ثنية النيجر من (موبتي) و(تومبوكتو) وإلى (غاو)، وتقدر نسبتهم بـ ١٢٪ من سكان البلاد، ويعملون بصيد السمك.

٣ ــ الفولاني: ولهم أسماء كثيرة أيضاً منها «الفولا» و«فيللاتا» و«البهل» وغيرها وقد جاءت هذه الشعوب من

الشمال، وتسربت بين شعوب «الماندينغ» واستطاعت أن تشكل أسرا حاكمة في كثير من المناطق سواء أكان ذلك في بلاد مالي مثل «غانة» القديمة، وامبراطورية «الصوصو» أم في بلاد السنغال.

وتنتشر هذه الشعوب في مناطق كثيرة من البلاد، ويقومون بتربية الحيوان، وغالبيتهم من المسلمين، وتبلغ نسبتهم ١٠٪ من السكان.

٤ ــ **البرنو:** وهم من سكان إقليم «برنو» شمال شرقي نيجيرية، وفي غربي بحيرة تشاد، ويتألفون من عدة أجناس مختلفة أهمها «الكنوري» و«الكري» و«الكرنبه» و«المنكه» و«المندره» أو «الوندله» ثم الاعراب... وقد اعتنقت هذه الأجناس الديانة الإسلامية في المدة الأولى التي انتشر فيها الإسلام في القارة الإفريقية بل ونشروها بين القبائل المجاورة الوثنية.

و يتكلم «البرنو» عدة لغات أوسعها انتشارا لغة «الكنوري».

٥ ــ **التوكلور:** وهذا الشعب ينتشر في بلاد السنغال، وقد انتقلت جماعات منه نحو مالي، وتعمل في الزراعة، كما أن بعضها يعمل في الصناعة من نجارة وحدادة وجلود وأوان فخارية، وهم من المسلمين.

٦ ــ **الموش:** وتعيش هذه القبائل في فولتا العليا، وأكثرها لا تزال وثنية، وتعمل في الزراعة وبعض الصناعات، وانتقلت جماعات منها إلى مالي.

٧ ــ **السينوفو:** وتنتشر هذه القبائل في أعالي النيجر وأعالي نهر

فولتا في ساحل العاج، وتشكل ٣,٥٪ من سكان مالي.

٨ ـ الماركاكا: وتبلغ نسبتهم ٦٪ من السكان.

٩ ـ الدوجون: وتقدر نسبة هذه القبائل بـ ٣,٥٪ من سكان مالي.

١٠ ـ الطوارق: ويعرفون بالملثمين لوضعهم اللثام على وجوههم، ويسكن هؤلاء الأرض الممتدة من (فزان) في ليبيا إلى شمال نيجيرية، ومن (غدامس) في ليبية عند الحدود الليبية ـ التونسية ـ الجزائرية إلى (توات) في الجزائر جنوبي مدار السرطان إلى غربي (تومبوكتو) في مالي، وهم عدة مجموعات من العشائر يضاف اسم المكان الذي تعيش فيه المجموعة إلى كلمة (كل) أي (أهل) أو (قوم) فيقال: (كل الهقار) الذين يقيمون في منطقة (الهقار) في جنوبي الجزائر و(كل ادرار) للذين يسكنون في منطقة (ادرار)، و(كل انتصار) للذين يقطنون حول (تومبوكتو)، ومع ذلك يشكل الطوارق جماعتين رئيسيتين:

١ ـ المجموعة الشمالية ويعيشون في الصحراء، ويربون الأغنام والجمال.

٢ ـ المجموعة الجنوبية ويعيشون في الهضاب وأرض السافانا ويربون الأبقار.

والطوارق طوال القامة (١٧٥ سم) المعدل الوسطي، وأجسامهم قوية، وعظام وجوههم بارزة، والبشرة أقرب إلى الصُفرة مشربة بحمرة، وعيونهم سوداء، وشعورهم سوداء متموجة وطويلة، وكلهم من

المسلمين، وقد لعبوا دوراً كبيراً في نشر الإسلام في منطقة السودان.

١١ ــ العرب: وهناك جماعات من العرب الرحل يعيشون في شمالي (تومبوكتو) ولكن نسبتهم قليلة.

يشكل المسلمون ٩٣٪ من سكان البلاد، وهم معظم القبائل.

ويشكل الوثنيون ٦٪ من سكان مالي، ومعظمهم من قبائل البامبارا التي هي من الماندينغ ومن قبائل الموش التي تنتشر في فولتا العليا.

ويشكل النصارى ١٪ من السكان وهم الذين استطاع أن يؤثر عليهم المستعمرون والإرساليات التبشيرية، نتيجة المصالح الشخصية وتقديم الخدمات.

اللغة:

لكل شعب لغته الخاصة يتكلم بها أفراده الذين ينتمون إليه، وأهم هذه اللغات:

الماندي: ويتكلم بها فروع الماندينغ جميعهم من سوننكي وديولا وبامبارا و.. وتعد أكبر لغة وطنية في مالي بصفة أن الماندينغ يشكلون أكثرية السكان.

التوكلورية: ويتحدث بها شعب التوكلور وشعب الفولاني.

الصنغانية: وينطق بها الصنغاي.

البربرية: وتسود لدى الطوارق.

العربية: ويتكلم بها المغاربة، كما أنها لغة المسلمين لذلك تسود في كثير من المناطق التي يكثر فيها المثقفون، وتدرس في المدارس الإسلامية كلغة ثانية، بل أن بعض المدارس تقوم على تعليمها.

الفرنسية: وهي اللغة الرسمية في البلاد، وقد فرضت بعد دخول الفرنسيين البلاد.

المدن:

باماكو: هي العاصمة، وتقع على نهر النيجر، في الجنوب الغربي من البلاد، ولا تبعد كثيراً عن حدود غينيا، وتتصل بخط حديدي مع (داكار) عاصمة السنغال على ساحل المحيط الأطلسي والتي تعد ميناء البلاد حيث أن مالي لا سواحل لها. ويبلغ عدد سكانها مائتي ألف نسمة. وقد استقر فيها أحد أمراء مملكة مالي القديمة في بداية القرن الثاني عشر الهجري فأخذت شهرتها تزداد من ذلك الوقت، وتعد اليوم أكبر مركز صناعي في البلاد.

كايس: ويزيد عدد سكانها على الخمسين ألفاً، وتقع على نهر السنغال، غير بعيد من حدود السنغال، وتقع على الخط الحديدي الذي يصل بين باماكو وداكار.

سيغو: وتقع على نهر النيجر، ويقرب سكانها من الخمسين ألفاً. وكانت مركز إحدى إمارات البامبارا في القرن الحادي عشر الهجري، وهي في منطقة زراعية.

سيكاسو: وتقع في الجنوب الغربي، على نهر (بانيغينغ) أحد روافد نهر (باني) أكبر روافد نهر النيجر.

موبتي: وتقع عند التقاء نهر النيجر برافده نهر (باني)، وهي في منطقة زراعية.

غاو: عاصمة الصنغاي، وتقع في ثنية نهر النيجر بعد أن يبدأ بالانحدار نحو الجنوب الشرقي.

جني: مدينة على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر (باني) رافد النيجر، تقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في الفصل المطير فتصبح خلال ثلاثة أشهر (تموز ــ آب ــ أيلول) أشبه ما تكون بالجزيرة حيث تفيض مياه النيجر وباني ويختلط بعضها مع بعض، ويفصل هذه المدينة عما جاورها من البلدان والقرى نطاق من المستنقعات في فصل الصيف مكن الأهالي في كثير من الأحيان من صد غارات المهاجمين.

لا يزيد عدد سكان هذه المدينة على عشرة آلاف أغلبهم من (البوزو) و(البامبارا) و(الفولاني) واللغة السائدة فيها لغة (البوزو)، وتستعمل لغة (الصنغاي) في التجارة على الرغم من أن كثيراً من الأهالي يجيدونها.

وهي سوق من أسواق المسلمين يجتمع فيها تجار الملح الذهب في القديم، كما غدت سوقاً لتجارة الرقيق، وكانت تنافس مدينة (تومبوكتو) في الجانب الفقهي إذ كانت مثلها مركزاً ثقافياً كبيراً

للدراسات الإسلامية، واحتفظت بهذا المركز مدة بعد احتلال الفرنسيين للبلاد ومحاولة تحطيم المراكز الإسلامية فضعف مركزها واقتصر التعليم الديني فيها على قراءة القرآن.

ويبدو أن تأسيس هذه المدينة يعود إلى القرن الثالث الهجري بعد أن أغار (السنونو) من منطقة (ماسينا) عليها، ولكن الغزاة اختلطوا مع المغلوبين من (البوزو)، واندمجوا معهم، فضاقت البلدة القديمة (جينو) على السكان، فانتقل (السنونو) إلى هذا المكان وأقاموا مدينتهم (جني) وإلى الشمال قليلاً من مدينة (البوزو). وكان (السنونو) وثنيين ولكنهم بدؤوا يدخلون في دين الله على حين بقي رؤساؤهم على وثنيتهم حتى القرن السادس الهجري حيث أسلم أحدهم، فهدم قصره وشيد مكانه مسجداً لا تزال آثاره ماثلة إلى الآن.

حكم (الصنغاي) (جني) من عام ٨٨٥ هـ فساد الأمن وتوسعت التجارة فوصلت إلى (تومبوكتو) و(غاو)، وبعد (الصنغاي) جاء حكم عرب الشمال فدخلت جيوش مراكش (جني) عام ١٠٠٥ هـ، وكان هذا الحكم سيئاً فهجر كثير من السكان ديارهم، وفي الوقت نفسه بدأت هجمات (البامبارا) الذين استولوا على المنطقة باستثناء المدينة. إلا أن الفولاني دخلوا (جني) عام ١٢٢٥ هـ، ودخل الأهالي طوعاً (لأحمدو شيخو المرابطي).

ثار العرب الموجودون فيها على الفولاني، وقاموا بعمليات ذبح للذين استقروا في المدينة من الفولانيين، فاضطر (أحمدو شيخو) إلى

حصار المدينة، وتم له فتحها، فنفى العرب منها وأعطى أملاكهم للفولانيين.

استولى (الحاج عمر) على المدينة عام ١٢٨٠ هـ، ثم جاء الفرنسيون عام ١٣١١ هـ بقيادة الكولونيل (أرشيفار).

تومبوكتو: تأسست عام ٤٩٤ هـ على ضفة نهر النيجر، وأصبح لها شأن عظيم على أنها مركز إسلامي كبير، توافد إليه طلاب العلم من إفريقية الغربية كلها.

هاجرت أول أسرة حكمت (تومبوكتو) من مالي عام ٧٣٧ هـ وظلت تحكمها مائة عام. ثم حكمها الطوارق أربعين سنة، ثم صنغاي من ٨٧٣-٨٩٨ هـ، ثم مراكش ٨٩٩-٩٧٨ هـ، ثم استردها الطوارق السودانيون عام ١٢٠٧ هـ. ثم الفولانيون عام ١٢٤٣ هـ. ثم جاء الفرنسيون عام ١٣٢٠ هـ.

وفي هذه المدينة الكثير من الآثار الإسلامية.

التقسيمات الإدارية:

تقسم دولة مالي إلى ست أقاليم هي: كايس ــ باماكو ــ سيغو ــ سيكاسو ــ موبتي ــ غاو.

ويقسم كل إقليم إلى عدد من الوحدات الإدارية يبلغ مجموعها ٤٢ وحدة.

مع النشاط الاقتصادي

تعتمد مالي في اقتصادها على الزراعة وإن كانت تعاني مشكلات كثيرة منها الجفاف الذي يحل بها، ومنها إيجاد السوق لبيع الفائض من المواد الغذائية التي كانت تصدر إلى السنغال ومنها المواصلات لنقل البضائع حيث إنها دولة داخلية وكل اتصال مع العالم الخارجي يجب أن يتم عبر أراضي جارة من جاراتها، ومنها الحاجة إلى رؤوس أموال لإقامة المشروعات المختلفة والنهوض بالاقتصاد.

الزراعة: إن أخصب الأراضي الزراعية تتركز حول نهري النيجر والسنغال وبخاصة حول باماكو وتومبوكتو وكايس. أما الأراضي الزراعية الأخرى والمروية بمياه الآبار وطرق الري البدائية البسيطة، إلى جانب الأمطار فموزعة في مناطق متفرقة من البلاد حيث تتوفر الأمطار الفصلية، وتتعرض الأراضي التي تعتمد على المطر إلى أخطار الجفاف والجراد، كما أن الاعتماد على الطرق البدائية في استغلال الأرض يؤدي إلى إفقاد التربة خصوبتها بسرعة إذ تزرع الأرض بعد حرق الأعشاب والأشجار وما إن تفقد الأرض خصوبتها حتى يهجرها زارعوها و ينتقلوا إلى أراض جديدة دون محاولة لاستخدام الدورات

الزراعية أو استخدام الأسمدة للتعويض عما تفقده التربة خلال الزراعة المستمرة.

وكثير من أراضي مالي صحراوية جافة أو فقيرة عليها طبقات من اللاتريت الحديدية تنمو عليها أعشاب فقيرة.

وإلى جانب ذلك تقوم في مشروعات حديثة للتنمية الزراعية منها سد (سانساندينغ) عند بلدة (سيغو) لري المناطق الواقعة بين (سيغو) و(موبتي) إلى الشمال من مجرى نهر النيجر والتي تقدر مساحتها بحوالي ١٢٠ ألف فدان، وينتظر توسعة المساحة المزروعة إلى عشرة ملايين فدان وأهم الحاصلات الزراعية:

الأرز: وهو المحصول الرئيسي للاستهلاك المحلي، ويزرع في السهول المنتشرة على طول مجرى نهر النيجر، ويبلغ معدل الانتاج السنوي حوالي ١٦٥,٠٠٠ طن.

الفول السوداني: وهو المحصول الرئيسي للتصدير، ويبلغ معدل الانتاج السنوي حوالي ١١٠,٠٠٠ طن.

الدخن: ويزرع بشكل خاص في المناطق التي حول مدينة (سيغو) و(باندياغارا).

القطن: وإنتاجه في ازدياد مستمر، ويبلغ معدل الإنتاج السنوي حوالي ١٥,٠٠٠ طن. وإلى جانب هذه المحصولات الرئيسية نجد زراعة السمسم وقصب السكر والذرة الرفيعة إلا أن الانتاج لا يغطي حاجة الاستهلاك المحلي عدا الذرة.

كما توجد أشجار الصمغ وأشجار (السبي) البرية التي يستخرج من جوزاتها مادة دهنية تستعمل لزيت الطهي وفي صناعة الصابون.

وقد أنشىء عام ١٣٥١ هـ مكتب للتخطيط في سبيل تحسين إنتاج القطن والأرز عن طريق مشروعات زراعية لزيادة مساحة الأراضي المزروعة أو لتأمين معامل الزيت ومصانع لحلج القطن وصناعة الصابون. كما أقيمت مدارس زراعية وعيادات بيطرية ومستودعات.

الثروة الحيوانية: تملك مالي ثروة حيوانية تضم مختلف أنواع الحيوانات فالأبقار ترعى في السافانا والأغنام ترعى في هامش الصحراء، والماعز يربى في السفوح الجبلية، ويقدر عدد الثروة الحيوانية كما يلي:

الأبقار ٥,٠٠٠,٠٠٠ رأس.
الأغنام ٣,٤٠٠,٠٠٠ رأس.
الماعز ٧,٠٠٠,٠٠٠ رأس.

وتنتج كميات كبيرة من الألبان ومشتقاتها. وتصدر عدداً من الحيوانات، وكميات من اللحوم، وعدداً من الجلود يضاف إلى جلود الحيوانات المذكورة جلود الضب والتمساح والأفاعي.

صيد السمك: ينشط الصيد في نهري النيجر والسنغال، وتعد (سيغو) و(موبتي) مركزين هامين لصيد السمك، ويقدر الانتاج السنوي بحوالي ٩٥ ألف طن، ويصدر نصف هذه الكمية إلى البلدان المجاورة.

الثروة المعدنية: تحوي أرض مالي كثيراً من الثروات المعدنية، لكن يستغل منها الحديد والذهب والملح فقط، وإضافة إلى ذلك يوجد البوكسيت والألماس، فالذهب تنتج منه كميات قليلة، ويكفي الحديد ما يحتاجه السكان لصناعة أدواتهم الزراعية. أما الملح فتقوم الجمال بنقله من مدينة الملح الشهيرة (تاودني) الواقعة على بعد ٧٠٠ كم إلى الشمال من مدينة (تومبوكتو)، وينقل الملح عادة على شكل ألواح يزن اللوح (٣٠-٤٠) كيلو غراماً.

الطاقة: تقوم في مدينة (كايس) محطة لتوليد الطاقة الكهربائية تعمل على الماء، وهناك محطات أخرى تعمل على النفط في (باماكو) و(غاو) و(سيغو) وغيرها...

الصناعة: على الرغم من تقدم الصناعة إلا أن معظمها لا يزال بسيطاً يعتمد على المواد الأولية المحلية من زراعية وحيوانية مثل زيت الفول السوداني وزيت جوز السبي والحلويات والجلود والصابون والأحذية والإسمنت.

وأغلب الصناعات إنما هي محلية تقليدية وأكثرها يدوية بسيطة تعمل على سد حاجات السكان الضرورية.

التجارة: تصدر مالي الفول السوداني ــ زيت الفول السوداني ــ الحيوانات ــ الجلود ــ الأرز ــ الملح ــ القطن. ومعظم الصادرات تتجه نحو البلدان المجاورة.

والميزان التجاري خاسر، حيث تعادل الواردات ضعف الصادرات.

والوحدة النقدية في مالي هي «الفرنك الجديد».

المـــراجع

الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية **عبد الرحمن زكي**

الاعلام **خير الدين الزركلي**

إفريقية ــ الأرض والناس **محمد عبد الفتاح إبراهيم**

اقتصاديات العالم الإسلامي **محمود شاكر**

الدعوة إلى الإسلام **توماس .و. أرنولد ــ ترجمة حسن ابراهيم حسن**

التبشير والاستعمار **عمر فروخ ــ مصطفى الخالدي**

الكشوف الجغرافية **محمود شاكر**

امبراطورية غانة **ابراهيم علي طرخان**

انتشار الإسلام في إفريقية **حسن ابراهيم حسن**

تقويم البلدان الإسلامية **إصدار مؤتمر العالم الإسلامي ــ كراتشي**

تقويم العالم الإسلامي **إصدار معهد الدراسات الإسلامية القاهرة**

الجغرافية السياسية لإفريقية **فيليب رفلة**

حاضر العالم الإسلامي **لوثروب ستودارد ــ ترجمة عجاج نويهض ــ تعليق شكيب ارسلان**

قادة فتح المغرب **محمود شيت خطاب**

معجم البلدان **ياقوت الحموي**

مواطن الشعوب الإسلامية «سلسلة كتب» **محمود شاكر**

الفهرس

اعتذار ٣

مقدمة ٥

مع الجغرافية ٩

السطح ٩

المناخ ١٠

المياه ١٢

النبات ١٤

مع التاريخ ١٦

امبراطورية غانة ٢٤

اسلام امبراطورية غانة ٣١

امبراطورية الصوصو ٣٥

مملكة مالي ٣٧

امبراطورية الصنغاي ٤٥

البامبارا ٥١

الاستعمار ٥٦

مع السكان ٦٥

المدن ٧١

مع النشاط الاقتصادي ٧٥

المراجع ٧٩

الفهرس ٨٠